روايات عبير الجديدة

ليليان روث

سأبكي غدًا

www.elromancia.com

مرمورية

www.elromancia.com

سأبكي غداً

الألم قد يطرد الفزع والهلع
ويأس انضلت على المرأة لكماً
وتحطم الزجاج وسالت الدماء
ولكن كلومي لم تشف دائي
فأنا انفجر... أنا أجن
وشعرت إني أتجه إلى النهاية
واخترت ، اخترت الحياة على الموت
وشربت حتى ثملت ... آه !

القسم الاول

١

كيف ابدأ ؟

استهل الحديث من نقطة دان فيها التوفيق، وذاع الصيت، وغدوت مطمح الابصار ومهوى الافئدة ، وغدا شيوخ السينما امثال كاري كوبر وموريس شوفالييه يهرعون الى مشاهدة حفلة العرض الاولى لافلامي ؟

ام ابدأ من لحظة مروعة رهيبة ؟ من لحظة سوداء قاتمة ؟ من لحظة وقفت فيها على مفرق طريقين ــ الحياة والموت ــ امام نافذة حجرة تقع في الطابق الحادي عشر ، وقد استغرقت في الفكر ، واستعدت ذكريات السنين المفزعة التي قضيتها بين الكأس والطاس ، اشرب حتى الثمالة ، واسكر وافقد وعيي ؟!

يوم استعدت وانا على شفير الهاوية ، ما حاق بي من الهوان اثناء تلك الفترة العصيبة ، وما الم بي من البلاء ؟

ويوم تقدمت نحو النافذة ، خطوة اثر خطوة ــ ببطء ... ببطء ــ لالقي بنفسي من هذا المرتفع ولتتلقفني الطريق فأستريح ؟

كيف ابدأ ؟

هل ابدأ سرد قصتي وانا ابنة اربع وثلاثين سنة ، يوم غادرت المصح لاشق لنفسي في مضمار الحياة طريقا جديدة ؟

لا .. لا .. بل ساروي هذه القصة ببسط الوقائع كما

حدثت في يسر وسهولة وعدم تكلف .. لأن من شأن هذا الاسلوب الهين ان يمتع القارىء ، ويفيد المطالع ويعطي الخلق عبرة لا تضاهيها عبرة اخرى — فالحياة درس .. وحياتي انا خير مثل يضرب في درس للحياة !

لم تكن حياتي ملكا لي . بل لقد رسمت طريقي ورسم مستقبلي قبل ان تتفتح عيناي على نور الحياة ، اجل قبل ان اكون انا ، او قبل ان يكون لي كيان !

تعلق ابواي بالمسرح . فغنيا فيه . وانصهرا في ضجته . واضحيا قطعة منه . ثم امسيا نفاية من نفاياته !

والمسرح يلفظ دائما من يتمسك به ويتشبث !

والمسرح غانية مدللة لا تصبر طويلا على عاشق واحد !

كانت امي تقضي جل وقتها في هذه الملاعب . وكانت تأخذني معها في ايام كثيرة الى مسارح التمثيل .. وكانت كما فهمت وانا ابنة ست سنين . تتوق الى رؤيتي ممثلة بارعة ومغنية اتبوا الذروة . وانتقدم الصفوف .

اما والدي فقد اراد لي مستقبلا آخر . اراد ان يقتصر تمثيلي على الادوار التاريخية التي تعود على صاحبها بالشهرة والمجد . ان اجاد وابدع . وان اتقن الاداء وتقمص الشخصيات .

وكان الفنان الحقيقي في راي امي . هو ذلك الانسان الذي يحبوه الله برضاه . وما اكثر ما قالت ونحن في طريقنا الى المنزل :

«صحبتك لتشاهدي العظماء . ومن هم في طريق العظمة .. على الدرب .. على الدرب .. الى الخلود !.. »

وما اكثر ما ذرفت الدمع وهي تصف لي هذه الفئة من الناس بقولها :

« انهم عظماء يا بنيتي .. انهم عظماء .. والا لما اعتلوا خشبة المسرح ، والا لما بذلوا وسعهم كي يضحكوا الناس وكي يبكوهم ! »

في عام ١٩١٦ نزحنا الى نيويورك — وكنت في السادسة من عمري .

ولما استتب بنا المقام في المدينة الصاخبة الهادرة ، شرعت امي تأخذني الى المخرجين وانذاذ المسرح وافرغت طاقتها في اقناعهم بقبولي في اسرتهم ، واتاحة التدريب اللازم لي ، لقاء أجر ضئيل نستطيع ان نسد به رمقنا ..

لقد ضاقت في وجه امي سبل الحياة ، وخصوصا بعد ذهاب ابي — واقول بعد ذهابه ، لاني لم ادر في ذلك الحين انه قضى نحبه — فقد قالت لي امي وهي تنشج : ابوك ذهب الى مكان بعيد ، ولكني لبثت انتظر اوبته الى اليوم الذي ميزت فيه بين الحياة والموت . ورثى احدهم لامي ، وكان يعرفها ، ويقدرها ، وعين لي يوما اقوم فيه بالتجربة اللازمة لدور صغير اعلن عنه .

ولما قصدت المسرح مع امي ، فوجئت بفوج عظيم من الاطفال ينتظر لدى الباب . فاصابني الخوف ، وشعرت برغبة في الفرار — كنت طفلة ، طفلة صغيرة ، والخوف طبع في الطفل ، قبل ان تكون الشجاعة !

ودخلت الفتيات الواحدة تلو الاخرى . وحان دوري ، فلما مثلت امام الرجل ، ارتعش جسدي واصفر وجهي .. ثم لما تكلمت ، تلعثم لساني .. وهكذا فشلت فشلا ذريعا ، واخفق المسعى ، وخرجنا ، نتعثر باذيال الخيبة ، وبالثلوج المتراكمة .

وما ان ابتعدنا قليلا حتى شعرت بصفعة شديدة تصيبني على وجهي ، فصرخت وانطرحت على الارض البيضاء .. واعانتني امي على النهوض ، ومسحت وجهي بمنديلها ،

وبكت وهي تحتضنني .. بكت بكاء مرا ، وجعلت تتمتم وهي تهدهد وجهي :

« بنتاه .. لا تراعي .. لقد ضربتك من القهر ، فاصفحي عني ! » وقبلتني قبلات الندم والاستغفار .

وقلت ونحن نستأنف السير : « لا تبتئسي يا اماه ، لا تقنطي ! »

وهتفت هي من الاعماق : « لا .. لن ادع لليأس مجالا الى قلبي ، وسنعاود الكرة ، وسننجح .. ثقي من ذلك ؛ ثقي ! »

وجربنا مرة اخرى .. ذهبنا الى مسرح آخر ، ففشلنا .. ولكننا تعلمنا درسا — تعلمنا أن لا نستسلم ، وان لا نرتمي في احضان اليأس .

وما فتئنا نحاول ، حتى اعجب بي مدير مسرح كهل .. وسألني عن اسمي بعد اعرابه عن اعجابه ، فلما قلت له ان اسمي روث ، صاح جذلا :

« وانا ادعى روث ايضا ! »

وعملت في مسرح الرجل ، ومضت الايام وانا ازاول تدريبي وعملي ، وانقطعت بطبيعة الحال عن الذهاب الى المدرسة ، بيد ان امي كانت تنتظر اوبتي في منتصف الثانية من كل يوم ، فتقدم لي طعامي ، ثم تقبل علي بعد استراحة قصيرة ، فتعلمني وترشدني بجد وجلد وحلم .

ولم يقتصر العمل على ساعات الصباح وبعد الظهر ، بل تعداها الى ساعات الليل فصدر الامر لي بالذهاب في مساء كل يوم الى المسرح لازاول تدريبي امام المسؤولين عن تمثيلية جديدة خصصت فيها بدور فتاة تغني بعض المقطوعات .

وكان اسم التمثيلية — المستر لاكي — وقد لقنتني درسا لم يغب عن ذهني .. واستفدت كثيرا من دوري ، واخذت

من اخطائي عبرة لي في ايامي المقبلة .

فالتمثيلية تروي قصة ، وعلى الممثل ان يتظاهر ان الحوادث حقيقية . وقد قال لي الممثل الاول — اي المستر لاكي :

« عليك أن تنسي وجود الآخرين وانت تمثلين — عليك ان لا تقيمي وزنا للجمهور .. مثلي .. مثلي .. وكأنك وحيدة تقفين في مكان مغلق .. ثم ينبغي ان تؤمني بأني ابوك الحقيقي .

"وتذكري . لا تنظري قط الى الجمهور . لا تلتفتي الى الناس متسائلة ! »

وقد نسيت نصيحته لحظة كانت كافية لتشعرني بأني اكاد اموت من الفزع . مالي ما كدت انظر الى الجمهور ، واري العيون الشاخصة حتى ارتجفت اوصالي ، وتولتني رعدة شديدة رهيبة .

وطفقت فيما بعد اغني في البيت واتمرن على اجادة الغناء ، وكانت امي تطلب الي ان ادرب نفسي على الغناء الذي يتطلب الامتداد في الصوت .

ولم انس نصيحة امي . وطفقت ادرب نفسي سرا . وانتهز كل فرصة اطمئن فيها الى وحدتي فاغني غناء من يريد ان يتقن درسا .. وما اكثر ما خلوت الى نفسي في غرفة الحمام وفتحت صنبور الماء الى اخره وجعلت اردد اغنياتي على نغمات الماء المنسكب .. حتى اصبح صوت الماء الاوتار التي تصحب غنائي وشدوي — وقد اثارني هذا كثيرا — واليت ان ارغم امي على الاعراب عن فخرها بي وبصوتي !

وتقلبت بين المسارح المختلفة ، ومثلت الادوار الصغيرة ، واستطعنا بذلك ان نكسب رزقنا ونكتفي .

واعلنت احدى الدور مرة عن حاجتها الى فتاة صغيرة تقوم بدور هام في مسرحيتها . وذهبت من تلقاء نفسي الى المسرح

وطلبت مقابلة المدير ـ وكان اسمه المستر (سافيج) . ولما ادخلتني مساعدته نهض واقفا ، فرعبت وهلعت نفسي . فقد خيل الي انه يسحب من جسمه طولا مديدا لا نهاية له . . خيل الي انه مطاط يمتد ويمتد حتى السقف . . فقد نظرت اليه ساعة وقف فاذا به كالمارد العملاق .

وقال : « انت ممثلة ؟ اذن كيف تسألينني ـ هل انت الطحان ؟ » وهبط علي الوحي على حين غرة ـ فقد تراءى لي انه الطحان نفسه ، بل حسبته (اله الريح والرعد) وقلت بصوت متهدج ينم عن الخوف الصادق : « هل انت الطحان ؟ »

وقال الرجل : « اعطيتك الدور فادخلي ! »

وتلألأ اسمي على باب المسرح ، تلألأ بجانب اسماء الممثلين الآخرين . وكنت في الثامنة من عمري !

وخطوت خطوات واسعة في طريق الشهرة ، ولكن شهرتي لم تعن شيئا لي ، كنت اوثر اللعب ، كنت اتشوق الى الاشتراك مع الاطفال في لهوهم وعبثهم . . وكنت انظر اليهم وهم يمرحون في الشارع ، فاتحسر واتلهف واتلهف وابكي عندما تكون امي بعيدة عني !

وصعدت بسرعة لم تخطر على بال امي ، وزاد الدخل اضعافا . ومع ذلك لبثت امي تعنى بي ، بل شددت من قبضتها علي ، فاصرت على وجوب استمراري في تلقي دروس الفن والعلم . . وكنت اكره ذلك ولكني رضخت مرغمة .

وذهبت الى واشنطن ، ومثلت في اكبر دار للتمثيل هناك . ولدى انتهاء الفصل الاخير في اول يوم ، ارسل الرئيس ولسون في طلبي ، وكان قد شاهد التمثيلية . فلما هرعت اليه صحبني هو والسيدة الاميركية الاولى زوجته في سيارتهما .

وقد لاطفني رئيس الجمهورية وخاطبني بلين وهدوء ، وقال وهو يداعب خدي بأصبعه الدقيقة : « اتعلمين يا

صغيرتي سيأتي يوم تكونين فيه من اعظم الممثلات ؟ »

واستطعت ان اتغلب على حيائي وخوفي ، فاشكر له حسن ظنه . . فقد تحدثت الصحف طويلا عن اعجاب الرئيس بي ، وكان في حديثها ثناء واطراء ، مما اضاف الى سمعتي شهرة وصيتا !

ورجعت مع امي الى نيويورك ، بعد انتهاء العرض . لنرحل ثانية الى مدينة اخرى . . ومضت الايام ونحن في حل وترحال ، لا يستتب بنا في مكان مقام ، ولا يهدا نفس . . حتى مللت هذا التنقل المستمر ، وددت لو مكثت في مكان واحد ولكني لم اجرؤ على الافضاء لامي بما ارغب فيه . . فهي لن تعدم الجواب ، وجوابها معروف لدي ـ الشهرة . . المجد . . الخلود . . يا فتاتي !

الشهرة . . المجد . . الخلود . .

انها تبحث عنها . . لي . .

انها تبحث في كل مكان . . وهي تنجح في مسعاها

تنجح باستمرار ، لاستمرارها . . حيث اخفق غيرها لاستسلامه .

٢

بلغت الثانية عشرة . ونشطت امي في تقديمي الى الشخصيات الكبيرة .. وكان الجميع يحتفون بي ويظهرون اعجابهم واخلاصهم ..

وصحبتني مرة الى دار التمثيل لاشاهد (لينور اورليك) العظيمة . وقد تعلقت بها واحببتها .. وذهلت لما شاهدته من براعتها واجادتها .. شدهتني الحقيقة التي تبدت فيها.. شدهتني قدرتها على التأثير .. ووددت لو اصبح لي في المستقبل مثل براعتها ومهارتها ..

واقترحت امي ان اخط لها رقعة صغيرة ، فاستحسنت الراي وارسلت لها الى بيتها كتابا لطيفا امتدح فيه فنها وعبقريتها . واجابتني بكلمة مقتضبة دعتني فيها الى زيارتها .

ولما ذهبت كنت ارتجف انفعالا . وقرعت الجرس بيد مرتعشة ففتحت الباب بنفسها واستقبلتني هاشة باشة .

وقلت : « اواه يا مس اورليك ! انا ليليان روث ! »
فهتفت : « يا للسماء ! انت تشبهينني كل الشبه ، وكاننا توامان — انا الكبيرة وانت الصغيرة ! »

فقلت : « اشكر لك لطفك ، ان هذا ما سمعته من الكثيرين ان كنت لا افضح سرا ، انك مثالي الذي اقتدي به واحتذيه »

فاحاطت عنقي بذراعها وقبلتني .

ورات امي وقد تجمع لديها مقدار من المال ان تدخلني الى مدرسة الفنون الجميلة . فقبلت مسرورة . وانخرطت في سلك الطلبة والطالبات ، ونسينا كل شيء عن متاعب المسارح ، ومشاق التدريب ، والعناء الشديد الذي يكابده الممثل .

والتقيت في المدرسة (بليو فوكس) . وكان فتى مديد القامة قمحي اللون ، جعدي الشعر يبلغ السابعة عشرة من عمره، وتوطدت الالفة بيننا ، فطفقنا نخرج معا الى السينما ونتناول المرطبات في الاماكن العامة .

وفي نهاية السنة الدراسية — وكنت قد ناهزت الرابعة عشرة — طلب الي ان اؤدي ادوار الفتيات الكبار . واستمع مدير المسرح الى غنائي .. وامرني ان اعيد الكرة .. ثم قال:

« انت صغيرة ، وقوانين نيويورك لا تسمح للقاصرة ان تغني او ترقص على خشبة المسرح .. ولكني اريدك ، فانت اعتبارا من اليوم ليليان روث ، الممثلة في شيكاغو ، والبالغة من العمر ثمانية عشر عاما ! »

ولكن فرحي بنجاحي انقلب الى ترح بالغ .. فقد زاد الرجل في سني ، بيد اني لم ابلغ الخامسة عشرة بعد .. ورايت نفسي فجاة اختلط بزمرة من الفتيات الراقصات .. اي رايت نفسي اعيش في دنيا العري ، فاصابني الدوار ، وغثت نفسي .. وطفقت اشكو الصداع ، وانتهز كل فرصة لاذرف الدمع وابكي.. وكان البكاء يفرج عني ويرخي القبضة الشديدة الضاغطة على مخنقي .

ودعاني مساعد المدير الى سهرة راقصة في ملهى ليلي . فلما اخبرت امي اذنت لي بالذهاب . وقد عجبت لموقفها ، الم تخش علي ؟ الم تخف ان يصيبني من الرجل مكروه ؟

وذهبت في سيارته الى الملهى ، فاذا المكان ينخفض كثيرا عن مستوى الطريق ، واذا به خافت الانوار ، وقد ازدحم بالرجال والنساء ، وغصت الحلقة بالراقصين والراقصات.

ووقفت اتأمل في الجمع ، و نت اراهم يغادرون الحلبة والقاعة الى مكان مظلم ينحدرون اليه بدرج ضيق ،فاشمأزت نفسي ، واصابها اللغوب .. فقد ايقنت ان المكان موبوء ، وعلمت ان الخطر يتهدد كل فتاة تؤمه .

واحترست ، وما زلت برفيقي حتى رضي بالانسحاب . ولما دخلت البيت ، الفيت امي تتثاءب في فراشها .. وقد سالتني عن الحفلة فاطرقت وقلت :

« ارجئي الحديث الى الصباح يا اماه »

واخبرتها كل شيء في اليوم التالي .. ولما اعربت لها عن نفوري من عملي ، وشكوت من الصداع الاليم الذي ينتابني كلما ذهبت الى ذلك المسرح ، وكلما شاهدت العاريات ، وغنيت مع المغنيات ، ربتت كتفي وقالت :

« لا يليق هذا المكان بك يا صغيرتي ، ويجب الان ان تأخذي اجازة .. ان تخلدي الى الراحة — لقد اثبت جدارتك ، فانت ممثلة ، وانت مغنية ، وانت راقصة — ولن تلبثي ان تصبحي نجما يضيء سماء الفن في هذه البلاد ! »

وجاء عام ١٩٢٨ ، وبلغت السابعة عشرة ، اصبحت فتاة رشيقة جميلة تأسر الباب الرجل .. اصبحت فاتنة خلابة .. و صبح دخلي في تلك السنة كما ذكر في العقد الجديد ، اربعمئة دولار في الاسبوع الواحد .

وفي يوم العرض الاول للتمثيلية الجديدة التي تقاضيت عنها هذا الاجر الطائل ، جئت الى دار العرض فلم اجد اسمي بين الاسماء التي تنعكس عليها اضواء الكهرباء الخافقة ..

فهرولت الى المدير غاضبة وقلت : « الست من ممثلاتك المرموقات ؟ الم امثل واغني في المدن الاميركية كافة ؟ فاين اسمي ؟ اين هو بين سائر الممثلات والممثلين ؟ »

فحدجني بنظرة حادة ، واجاب : « ومن تظنين نفسك ؟ »

ولما اردت ان ارد فاقذع له ، اسرع الي فجرني من ذراعي الى الخارج ، وجعل يسأل المارة : — اتعرفون هذه الفتاة ؟ اتعرفون ليليان روث ؟ ارايتموها تمثل وتغني ؟

ولم يجبه احد بانه يعرفني ، بل نظر الينا الجميع شزرا ، وكاننا مخبولان .. ورجعنا الى المكتب. وابتدرني الرجل وهو يبتسم متهكما :

« اتئدي يا صغيرة .. انك معروفة لا انكر ذلك .. بيد ان من يعرفك لا يدخل هذا المسرح .. انه من رواد الملاعب الاقل شانا ، ولا يدفع ثمن تذكرته عشرة دولارات .. افهمت ؟ لا بد لك من الاصطبار ، اصبري ! فانت صغيرة بعد ! »

فصحت في وجهه وانا انشج :

« الا تبا لك ! لو طرحت هذا السؤال وبرفقتك اشهر ممثلة لما اجابك انسان ، ولما صادفك الا الخذلان .. لقد كنت اشبه بمجنون فاقد الادراك ! »

وذهبت الى البيت وانا انتحب بصوت مرتفع ، واسترضتني امي ، فقبلتني وشجعتني ، وحثتني على التمسك بكرامتي ومكانتي .

ولكن الامر كان اخطر مما ظننت ، فقد ارسل المسرح بعد ساعة اخطاره المخيف ، وفيه يخيرني بين العودة السريعة قبل بدء التمثيل ، وبين اختتام حياتي الفنية في مسارح برودوي ..

وشعرت باني غلبت على امري ، ورجعت ادراجي لاؤدي دوري .

وكنت منهومة احب الاكل والشرب ، ولهذا كان جسدي يميل الى البدانة بعض الشيء .. وقد رأتني احدى الزميلات وانا التهم الحلوى واشرب اللبن ، فنظرت الي غاضبة — وكانت تحبني — وقالت :

« اراك لا تحفلين الشهرة يا ليليان .. اما تنظرين الى

نفسك في المرآة ؟ الا تشاهدين بضيعك يكتنز وينتفخ ؟ اقلعي ويحك عن الاكثار من الطعام ، قللي منه ، فأمامك مستقبل مفتوح على مصراعيه ، وعليك ان تنقصي وزنك ، فثمة شهرة اعظم ، ثمة شاشة بيضاء في هوليوود تجذب اليها الممثلات من اقصى اطراف المعمورة ! »

وفكرت في كلامها فرايت فيه صدقا وصوابا .. انها على حق ، وينبغي ان أميء الى نفسي ، حتى ابلغ وطري واصل الى الاوج ، الى القمة ، الى الذروة التي ارادتها لي امي الطامحة ، المشرئبة العنق ، الطالبة للمزيد !

وما عتمت ان وضعت لطعامي نظاما لم احد عنه . ومضت ايام قليلة اخذ وزني ابانها يخف وينقص .

لقد استعدت رشدي وقهرت معدتي ...

فالى الامام يا ليليان الى الامام !

وان انس لا انس اول كأس من الخمر جرعتها .

بلغت السابعة عشرة في منتصف ليلة من ليالي ١٩٢٨ . وكانت الدنيا تستعد لاستقبال العام الجديد بعد ليلتين .وكنت على موعد مع ليو فوكس . وقد سمحت لي امي ان اتاخرتلك الليلة حتى اودع العام الراحل واستقبل العام الجديد .

ولما جاء ليو بعد قليل وجلست الى جانبه في السيارة ، اخرج زجاجة صغيرة من جيبه وقال : « لنشرب احتفاء بذكرى ميلادك يا ليليان .. »

ولم يسبق لي من قبل ان ذقت الخمر . ولكني انصعت لليو تلك الليلة وشربت الجرعة الاولى .

ووصلنا الى المكان الذي تقام الحفلة الراقصة فيه ومشيت بين الموائد ، فاذا بصديق يدعونا الى تناول كأس من الخمر. وشربت الكأس الثانية ، وكان احد من الاول واقوى .. ولكني شعرت بالدفء والنشوة .

واصابني سعال شديد لم يلبث ان فارقني ، فضحكت مغتبطة جذلة ..

وزجينا ساعات حلوة في مرح ولهو ورقص . وفجاة ملا الدنيا ضجيج الاجراس ، وصفارات الانذار ، وصيحات الرجال والنساء .. لقد انتصف الليل ، وغبرت سنة وهلت سنة .. وتبادل الجميع قبلات التهنئة متفائلين مستبشرين.. وصدحت الموسيقى بالحان حية نشيطة ، واطفئت الانوار .

واحببت كل انسان ، وتلاشت حياتي ، وتباطأت عقارب الساعة في دماغي — وفكرت — ان هذا رائع ! رائع ! انني امشي في الفضاء واطأ الهواء ، واود ان ادغدغ كل امرىء في هذه القاعة ، ثم اولي هاربة !

وشربت ، كان كل رجل يشدني من يدي دون ان يراني فيقبلني ويسقيني .. واختمر في صدري شعور عجيب وحب للحرية . وثارت عاطفتي ، ورغبت في فتح مغاليق قلبي ،الكل.. لكل رجل ..

وفي ساعة واحدة تغير شيء في .. نسيت الدنيا ، ونسيت امي ، ونسيت التقاليد والعادات .. ولم انتبه الا على صوت ليو يعنفني ويطلب مني ان اتشدد واتحامل لياخذني الى البيت .

وقد اغربت في الضحك وهو يزجرني ، ولكني فكرت فيما مر بي ، وانا جالسة بجواره في السيارة ، وشعرت بشيء من الخجل .. الا اني لم اتصور قط ان تكون هذه الليلةمفتاح انقلاب رهيب اصابني .. لم اتصور قط ان تربطني هذه الليلة بالخمرة برباط وثيق .. وايقنت عندما يئست وابتأستان الموت فقط يستطيع ان يفصمه ويحل عراه !

وبعث صاحب دار كبرى ورائي بعد يومين وطلب الي ان اغني له بعض المقطوعات الشائعة . ولما انتهيت اطرق الرجل مليا ثم صعد في طرفا عابسا وقال :

« انت تصلحين لدور الممثلة الاولى في مسرحيتي المقبلة ، وسيبدأ تدريبك بعد أيام قليلة . ويكون مرتبك خمسمئةدولار في الاسبوع »

وبدأ التدريب ، وانتهى ليبدأ التمثيل . وجعلت اغنيبصوت يزداد صفاء مع الايام ويفتن الباب المعجبين الكثيرين ..

وهكذا بدأت تلوح لي ولامي بوادر الثروة والجاه ، وبدأنا نعتقد عن يقين ان آمالنا واحلامنا قد تحققت .

●

وذاع أمر الصور المتحركة ، واتجهت الانظار الى هوليوود واصبحت هذه المدينة الصغيرة قبلة النفوس ومهوى القلوب .

وافلحت اخيرا في اقناع رجل مرموق من رجال السينما ان يصورني ويأخذ لي شريطا صغيرا ناطقا ، وقد نجحت التجربة فاعطيت الدور في شريط يلعب فيه موريس شوفالييه دور البطل . ولما عرض الشريط بعد الفراغ من تصويره أصبت بصدمة شديدة ، وانهارت آمالي واحلامي — من هذه ؟! انا هذه ؟ هل يمكن ان اصبح يوما كجريتا جاربو ؟

ولكن جاءني رسول ابان الاستراحة واخبرني ان السيد لوبتس المخرج يرغب في مقابلتي — والسيد لوبتس اعظم مخرج وجد ، ومعنى دعوته الي تقديره لي وعزمه على الارتفاع بي الى القمة .

ولما تمالكت جاشي واستعدت قوة تفكيري ذهبت الى الرجل فقابلني بوجه طلق وقال بلهجته الالمانية :

« ما قولك في الذهاب الى هوليوود ؟ »

وارتج علي الكلام ، ولكني وجدت لساني اخيرا فاجبت : « هذه امنية أود لو تحققت ! »

وفكرت بليو في تلك اللحظة الفاصلة ، فهل اقدر على

فراقه ؟ ولكني لم اجد مندوحة من الاختيار بين الحب والشهرة .

وارتفع صوت الرجل الخطير يقول : « انني الآن أعد العدة لاخراج فيلم يمثل فيه موريس شوفالييه رواية (استعراض الحب) واظنك تصلحين للاشتراك معه في هذا الفيلم ؟ »

فهتفت مشدوهة : « انا امثل مع شوفالييه ؟ أواه يا سيدي ! »

وما اسرع ما عمدت شركة بارامونت الى عقد اتفاقطويل الاجل معي قوامه سبع سنوات . ويبدأ مرتبي بمبلغ ستمئة دولار في الاسبوع ويرتفع بعد ثلاث سنين الى ثلاثة الاف دولار .

وسافرت مع امي الى هوليوود . كنت فرحة مسرورة اغمض عيني والقطار ينهب بنا الارض ، وافكر بالمجد الذي غدا في متناول اليد ، ثم افكر بليو فتدمع عيناي وينقبض صدري .

●

ونشطت ابواق الدعاية ، واضفت علي مجلات السينما النعوت والصفات التي اسبغتها من قبل على كلارابو ونانسي كارول .

ولما وصلت ، احتفى لوبتس بمقدمي واخذني الى مكان التصوير فاختطف بصري وبهره ما شاهدته من اعاجيب هوليوود . ورايت موريس شوفالييه ورايت الجميلة جانيت مكدونالد . ورايت سواهما من ممثلي استعراض الحب .

ولكني اصبت بنكسة كادت تصعقني . فقد علمت بعد لحظات اني لن احظى بالدور الاول وان جانيت مكدونالد هي الممثلة التي تسلط عليها اضواء هذه الشركة .

وكتمت ما خالجني من أسى بالغ . وتلبثت انتظر تعليمات المخرج .

وقال لوبتس اخيرا : « على شوفالييه ان يجلس معجانيت على الاريكة ، وعلى ليليان ان تجلس في المكان المقابل مع الممثل لين . ويكون لين خادم شوفالييه ، وتكون ليليان وصيفة جانيت . يتطارح شوفالييه وجانيت الغرام وتنسجان انتما على منوالهما ، فاذا ضحكا اضحكا ، واذا تبادلا القبلات ، تبادلا القبلات !

وبدات التجربة ، فضاق صدري ووثبت من مكاني كالمجنونة وقلت وانا اشرق بدامعي : « اواه انني لم اجيء لاضطلع بمثل هذا الدور التافه ! »

فابتسم لوبتس وتقدم من الممثل لين وجلس الى جانبه ثم احاطه بذراعه ورنا اليه بنظرة جعلت جميع الحضور يضجون بالضحك .

ونهض مسرعا ثم قال موجها حديثه الي : « هكذا ، هكذا .. تعالي ، وارينا كيف تضحكين سواك بحركة من وجهك ونظرك .

ونسيت ما ظننته تحقيرا ، وفعلت ما اراد ، ونجحت ، واغرق هو في الضحك وجاراه الاخرون .

وذهبنا بعد ايام الى مدينة سان فرنسيسكو لالتقاط بعض المشاهد . ورافقنا في رحلتنا الممثل كاري كوبر . وفي تلك الليلة ذهبت معه ومع موريس شوفالييه الى ناد عظيم تؤمه الصفوة ، ولما فرغنا من تناول الطعام ، شعرت بساق موريس شوفالييه تحتك بي فاحمر وجهي خجلا والتفت اليه فاذا به يقول : « اترغبين في الرقص ؟ »

وقضيت دقائق قليلة بين يدي هذا الساحر .. تضيتهامعه في صمت ونشوة . ولما انقطعت الموسيقى قال هامسا : « ان عينيك ساحرتان يا ليليان ، ويجب ان تكوني على قدم الاستعداد دائما للذود عنهما وعن نفسك ايضا ! »

وابتسم ابتسامته الحلوة ، فشعرت بقلبي يقفز بين ضلوعي

ووفدت على هوليوود ممثلة المانية تدعى مارلين ديتريش ، وكانت وحيدة حزينة . وقد تعلقت بها وافتتنت ، فهي مثال المراة الرصينة المفكرة . وهي فضلا عن جمالها البارع تملك اجمل ساقين في هوليود . وكنت انظر الى ساقيها وافكر باكاذيب الدعاية . لقد وصفوني عقب مجيئي الى هوليوود بانني صاحبة اجمل ساقين في المدينة . وكان هذا بجافي الواقع ، وقد تكبدت مشقة كبيرة في اظهار الجانب الجميل من ساقي ، وفي تحريكهما بطريقة تخفي كل عيب .. اما مارلين فلم تكن تبالي كيف تمشي وكيف تجلس ، فهي مهما فعلت لا تقلل من كمال هاتين الساقين .

وكنت اسوة بمارلين اشعر بالهم والانقباض . وكانت حكايات ليو ترفه عني وترفع عن كاهلي وقر همي .

وكنت احيانا اباشر عملي من السادسة صباحا ولا انتهي الا بعد منتصف الليل .

ولم يكن لشيء اي معنى حقيقي في قرارتي الا بعد مجيء دانيد .

٣

عرفت دافيد ليوني وانا لا اتجاوز الرابعة عشرة ، وكان هو يناهز التاسعة عشرة في ذلك الحين . ولم اتوقع ان يصبح لي معه شأن خطير في هوليود بعد بضع سنين .

وقد اتصل بي احد العاملين معي — وهو من بلدتي — ذات ليلة فطلب الي ان اصحبه في جولة بسيارته ولما اصبحنا خارج البلدة — في ضواحيها — قال :

« لقد غرب عن بالي اطلاعك على وجود دافيد ليوني في هوليود وهو الان يشكو وعكة المت به ، فما قولك في زيارته؟»

فاعربت له عن شوقي لرؤية الفتى . فقد ذكرته وتذكرته. ودخلنا الى حجرته فالفيناه مضطجعا في فراشه . واضاءت بسمته الغرفة ساعة شاهدنا مقبلين عليه . وقال وهو يرحب بنا : « انتظراني قليلا في غرفة الاستقبال ريثما ارتدي ملابسي، وسأوافيكما الى هناك » .

وعندما جاء بقامته الهيفاء ، وخطوته الواثقة المعتدة ، ايقنت ان ليو ليس بالرجل الوحيد في الدنيا . فدافيد رغم مرضه ينضح بالحياة الرائعة ، وله في ذات نفسه شخصية تثبت وجودها في كل حركة يأتيها .

وعلمت منه بعد ان تحدثنا مليا انه اصبح من المحامين ، وقد جاء الى هوليود في مهمة لمكتبه ، ويتمنى الان ان يمضي العمر كله فيها !

وما عتم ان قال وهو ينتقل الى جانبي : « ثقي يا ليليان اني اعتبرك اختا لي ، ولهذا ارجو ان لا ترفضي الذهاب معي الى السينما » .

فهززت راسي .

وتابع يقول : « تاكدي من ذلك ، اني امحضك حب الاخ لاخته ، واتشوق الى مصاحبتك غدا مساء ، فهل توافقين ؟ هل تحبين ؟! »

واغضبني منه اصراره على ان يكون اخي .. ولكني رحبت بصداقته وفرحت لهذه الفرصة النادرة في هوليود التي يجتمع فيها الانسان بخل وفي عرفه وهو طفل !

وبعد بضع ليال صحبني دافيد الى حفلة افتتاح كبرى . ولما قفلنا راجعين في منتصف الليل ، وكنت ساهمة شاردة ممتعضة ، قال :

« اني اخ لك ، ولو رايت اختي مبتئسة كسيفة لفعلت هذا » وقبلني في جبيني !

وزاد ذلك من انفعالي وحزني .. وشعرت انه كلما اصر على اعتباري شقيقة له ، كلما تضاءل في قرارتي خيال ليو .

وقل عدد الكتب التي كنت اوجهها الى ليو ، كما ندرت اجوبته .

وما هو الا قليل حتى اصبح دافيد رفيقي الى كل مكان . بيد ان رجال الشركة فطنوا للامر فنبهوني الى مضاره، وحذروني من مساوىء الظهور في المجتمعات مع رجل مغمور ، فانا في طريقي الى المجد ، والنجم المنتظر يجب ان يحيا في عزلة !

ولم يستشط دافيد غضبا كما توقعت ، ساعة احاط بهذه التعليمات ، بل طفق ينتظرني في الطريق كلما كنت مدعوة الى حفلة او وليمة .

وقال لي ذات يوم بعد ان تعددت المقابلات : « لا اشعر نحوك الان بشعور الاخ نحو اخته ، ولكن اكره ما تكره نفسي

الافتئات على غيري والاعتداء على صديق مخلص لي .. انت فتاة ليو ، وهذا ما يجعلني ابتعد بقلبي ، او بالاحرى احاول ان ابتعد قدر طاقتي ! »

فقلت : « لقد انقطع ما بيني وبين ليو ، لقد اكتشفت ان علاقتنا كانت سطحية لا عمق لجذورها ، اما انت فانا احبك ، احبك كما تحب كل امراة تعرف معنى الحب ! »

وقفز دانيد من مكانه ، واحتواني بين ذراعيه ، وقبلني في فمي ، وترشف رضابي ، ثم قال وهو يضمني بشدة الى صدره :

« اي حبيبتي ، لقد اتحت لي السماكين ، لقد قلبت الظلام في نظري ضياء ... »

وقبلني ثانية ، وقبلته .. وغنيت فيه .. احببته .. وايقنت انه لي ، واني له .. ابد الدهر دائما .. في الحياة ... وبعد الحياة ...

وعالجنا موضوع الزواج ، فعزمت على ترك العمل بعد ان اناهز الحادية والعشرين من عمري . كما آليت ان اعمل بجد ونشاط وان اقتصد في النفقات حتى تصبح لي ثروة صغيرة تعيننا في مستقبل ايامنا .

●

ومضت الاسابيع ، واصاب والدتي من علاقتي بدانيد قلق وكدر . والحت علي بوجوب التقليل من رؤيته والخروج معه . كما قالت صراحة ان الانسان الذي يكون سببا في تحطيم مستقبل لا يستحق الحب والاحترام ..

ونوهت ايضا بأن صغر سني اعمى بصري وبصيرتي ، وجعلني اقبل على الفتى ، وانظر اليه كنهاية املي في الحياة .. وصاحت محتدمة :

« اواه ! كلما فكرت بالصبا والجمال والفن . وكلما فكرت بما تتاهبين لقذفه في الاتون ، من اجل هذا الفتى ، اشعر بأني مجنونة مخبولة اهرف بما لا اعرف ! »

واستخرطت تبكي ، ثم استنتلت تقول : « واني لاكاد اموت جزعا كلما خطر لي هذا الامر .. واعلمي انك ان اصررت على ملازمته فلا مناص لك من مغادرتي الى منزل اخر ! »

وتوزعتني الافكار ، ورايت نفسي في مهب الريح ، اشبه بريشة . فكل ما ابتنته امي لي ، جميع الاحلام والامال ، اخذت تنهار وتتداعى وتتهاوى امام ناظريها .

وكانت على حق ، فانا صغيرة ، ولم يحن الوقت الذي يخلق بفتاة في مثل سني ان تفكر بالزواج . ولكن الابتعاد عن الشخص الذي اشعرني بوجودي وكياني ، والذي ملأ قلبي واحساسي بمعاني الحياة ، امر دونه خرق القتاد .

ما عصيت لامي امرا ، ولكني لم انب طلبها ، ولم ارض بانذارها ، وما عتمت ان غادرت الدار وانتقلت الى شقة صغيرة .

على اني بعد اسبوعين لم اصبر على فراقها ، فرجعت وعشنا معا وكاننا عدوان يعيشان في هدنة لم تعلن !

ولم نكن نعلم مدى علة دانيد ولا خطورة مرضه . على انه افزعني ذات يوم حين انتابته نوبة من السعال بصق على اثرها الدم .

ولما ارسلنا في طلب الطبيب انتحى بي جانبا وقال :

« الا تعلمين ؟ ان هذا الشاب يقاسي من داء الصدر ، انه مصدور ويتحتم عليه ملازمة الفراش » .

واصابني من كلام الطبيب حزن واسى ، ان دانيد مريض وهو على ذلك يحتاج الي .. ويضاعف حبي وازداد تعلقي به ..

وان انس لا انس نصيحة اسداها الي مخرج كبير . فقد قال لي هذا الرجل حينما شاهد قلقي وانفعالي :

« ان لك مستقبلا باهرا يا عزيزتي ، ويتوقف مستقبلك على الرجل الذي تختارين . انت ترقين سلم المجد والشهرة بعزم وثبات . فاستمري حتى لا تقفي وحتى لا تسقطي . فانت مجموعة من اعصاب متوترة يا ليليان ، انت منهارة محطمة، فشدي من عزيمتك وثقي ان الرجل غير الجدير يجرك معه الى اسفل ، وان الرجل الكفء يطير بك ويحلق »

كان علي ان اتذكر نصيحته .

ولكني ضربت عرض الحائط بكل نصيحة ، وتغاضيت عن توسلات امي . وتغاضيت كذلك عن مرض دافيد المعدي ، وفي ليلة مظلمة ركبت معه في سيارته ، بعد ان تذرعت ببعض الحجج وانطلقنا الى مدينة تبعد قليلا عن هوليود حيث تزوجنا وحيث قضينا ليلتنا في فندق ثم قفلنا في اليوم الثاني راجعين .

اما كيف قضيت ليلتي فهذا امر يضحك ويبكي في آن واحد، فقد قضيت الساعات الطوال وانا ساهرة ارعى عريسي واقدم له الدواء .

●

وشعر سيسل دي ميل اخيرا بوجودي فاستعارني من شركة بارامونت لامثل في فيلمه الجديد (زوجة الشيطان) .

وكنت اختلس من ليالي ساعات قليلة لازور فيها زوجي في بيته . ولم نكن قد اعلنا بعد خبر زواجنا .

ولم تقتصر مقاومتنا علي امي والشركة التي اعمل فيها بل امتدت ايضا الى والد دافيد . وكان الجميع اتفقوا على اعتراض سبيلنا والوقوف في طريق سعادتنا .

على ان حالة دافيد كانت تنتقل من سيىء الى اسوا . وهو

رغم العلاج المستمر كان ينحل عوده ويشحب وجهه ويظهر الضعف بوضوح على تقاطيعه وأمائره .

وكنت في مساء ذلك اليوم الذي حفر تاريخه بأحرف من نار في دماغي اقوم بدوري في قاعات التدريب

وجاء النذير على حين غرة وطلبت الى غرفة التلفون واخبرتني خادمة دافيد انه يمضي مسرعا ، اي انه يحتضر .

ورايت نفسي اركض كالمجنونة في الشارع ، واتعلق بأول سيارة تمر بي ، واصيح بالسائق ان ينهب الارض نهبا، بأول سيارة تمر بي ، واصيح بالسائق ان ينهب الارض نهبا، فنظرت الي بعينين دامعتين ثم اشاحت وجهها واستخرطت في البكاء .

وفتحت الباب المؤدي الى غرفة دافيد ، وحدقت ، كان الفراش في مكانه ، ولم يكن هو في مكانه !

فعدت من الغرفة ، ودوت صيحاتي مرددة : «لا ، لا ، لا! لا اصدق ، كلا لا اصدق ! »

واخذتني الممرضة الى غرفة صغيرة كانت معدة للطفل الاول الذي تحدثت عنه مع دافيد ، ودعوته باسمه ، ولكني ما كدت ارى ملابس الطفل حتى فاض حزني فاخذت ابكي وانشج واحاطتني الممرضة بذراعها واجلستني على كرسي صغير وقالت برقة :

« ارجوك يا ليليان ، اصبري ، ولا تبكي دافيد ، فهو الان يتمتع براحة ابدية مع الرب »

فالتفت اليها وصحت : « لا تتكلمي عن الله ! ان دافيد ميت لا يشعر ، فكيف يأخذه الله مني ؟ انه صغير ، وقد بنينا آمالنا معا ، ولكننا بنيناها في الهواء لان الله سلبه مني »

فيتلك الليلة المدلهمة، ومن قلبي المثخن بالجراح ، ومن اعماقي التي تقطر دما ، ومن حنجرتي المتحشرجة خرج صوتي

فغنيت .. وكنت اسمع وانا اغني في غرفتي نشيجا خافتا هو نشيج امي ، غنيت في تلك الليلة كما لم اغن قبلا ، وكانت اغنيتي :

لا تقيدني ، لا .. لا تحاول ان تعرف ، لا ..

خذني كما وجدتني .. احببني ، احببني ، ثم دعني اذهب

ان الحب الذي نخلفه وراءنا لا يدوم

ان الحب يتغير ويتبدل ويزول

كما نتغير ، وكما نتبدل ، وكما نندثر نحن ..

واحتفظت بدافيد . كنت امثل واغني واضحك ، ولكني كنت ابكي دافيد في قرارتي ، واندبه ، ولا افكر الا فيه ، وطلبت الموت . وعبثا سعت امي الى تخفيف ثقل الكارثة .

اصابني نوع من الهستيرية العقلية ، وجعلت اكلم نفسي ، واعنف نفسي ، واصيح ، ثم اولول .

اصبحت مجنونة . وجلبت لي امي ممرضة نفسانية .. ومع ذلك لبثت اتالم من كل شيء .. من صوت السيارات ، وضجيج الناس ، ومن الشمس والهواء .. حتى كرهت امي والممرضة ونفسي !

ولما اشار الطبيب بوجوب دخولي المستشفى لكي انجو من الانهيار العصبي التام الذي غدا قاب قوسين مني ، اثر رايي على الذهاب في جولة تمثيلية واسعة ، كان الواي قد عقد على القيام بها قبل موت دافيد .

وذهبت ، ولكني اخذت معي دافيد — ملأت حقائبي بصوره ورسومه ورسائله . وفي كل مدينة اقمت فيها وضعت على منضدة سريري صورته الكبيرة . وصحبتني (الين) الممرضة النفسانية .

كما ان امي جاءت معي بعد ان الححت عليها ان تفعل .

وما اكثر الليالي التي وثبت فيها من الفراش وانا اصيح :

« انه هنا .. هنا معي ! انه ينام الى جانبي .. »

وزارني طيفه كل ليلة ، وحلمت به ليلة بعد ليلة .. حلمت انه همس في اذني قائلا :

« سيزعمون اني ميت ، فلا تصدقيهم ، لا تؤمني بما يقولون .. » ثم رايت الاطباء والممرضات ياتون والحزن منطبع على وجوههم . ورايت دافيد مسجى في الفراش ، ميتا ، مغمض العينين ... وزجروني لما راوني ، قالوا :

« انه ميت ، فاخرجي .. انه ميت فاخرجي .. »

ثم انهم جميعا هزوا رؤوسهم في حركة تمثيلية ، وعادوا من حيث اتوا ، في صف واحد ..

وفجاة تحرك الغطاء الرقيق ، ونهض دافيد جالسا ، وفتح عينيه ، وابتسم وهو يقول : « انهم مخطئون .. ماذا قلت لك ؟ ثقي اني حي اتمتع بكامل قواي ! »

واستفقت ، ولطمت راسي ، وصرخت ... واهرعت الي الممرضة ، وهرولت امي ، وكان وجهها اصفر وفمها تختلج شفتاه ، وعيناها تطرف اجفانهما — كانت تقاسي العذاب وتتجرع من الصاب ، وتكاد تنهار معي .

وغادرتني امي الى شيكاغو ، بعد ان رات من تصرفاتي معها ما اكد لها ان وجودها اساء اكثر مما نفع .

وفي احدى الليالي لم تجد الين وسيلة غير المسكن تهدىء به اعصابي . ونمت بعد ان عببت كاسين كبيرتين من الويسكي . حتى الصباح نمت براحة وهدوء ، ولم تمزقني الاحلام كما مزقتني في كل ليلة .

وصممت في اليوم التالي ان الجا الى هذا الدواء ما دام فيه البرء والشفاء .. ان المذاق لذيذ ، والتاثير قوي ، يخدر الراس والاحساس وما دام في الشراب راحة ونوم فلاشرب كل يوم .

وشاءت الصدف ان اتعرف على قائد طائرة في طور التدريب يدعى (ولي رتشرد) ، فارتحت اليه ، ورأيت في نظرته الصبيانية ما ذكرني بدافيد . وطفقنا نخرج كل مساء فنقضي ساعات في رقص وشرب ، حتى اذا بلغت الساعة العاشرة ذهب هو الى ثكنته وذهبت انا الى مقري..

كان ابو متاجر اخشاب في مدينة نائية ، الا ان (ولي) كان ينظر الى الطائرة كصانعة مستقبله ، فهو يريد ان يشق طريقه في مضمار الملاحة الجوية ، وان يكون ذا شان ومقام سواء في الحرب او في ايام السلام .

ولما انتهى العمل في (سان انطونيو) حزن ولي ، واصابه خوف شديد من ذهابي ، واشفق على نفسه من هذا الفراق.. فقد احبني كما بدا لي ، وكلف بي كلفا شديدا ..

وسافرت الى المدينة الجديدة التي يجري فيها العرض ، ولكن (ولي) كان يتصل بي كل يوم . كان يحبني ، وكان حبه لي ، كما قال يسري مع دمه في دمه ، في جسمه وقلبه .

واعرب لي اخيرا عن رغبته في الزواج ، وعن استعداده لتقديم استقالته واللحاق بي .

وفكرت في الامر .. وايقنت انني ان استجبت انقذت نفسي من الذكريات الممضة .

ولما اتصل في اليوم التالي ، طلبت اليه ان يأتي ، فأنا زوجة له منذ الان !

وحاولت الين ان تثنيني عن عزمي ، قالت : ان الفتى صغير السن ، لا يملك من المال شيئا .. واني لم اره الا منذ وقت يسير ، فلم لا اتروى ؟ لم لا افكر قبل ان ازج نفسي في مأزق جديد ؟

ولكني ضربت عرض الحائط بنصيحتها ، فقد عزمت وصممت .. وقد قطعت على نفسي عهدا للشاب ، ولن انكث بالعهد !

ووصل ولي واندفع نحوي بملابسه الجديدة ــ بملابسه المدنية ــ فصعقت :

آه ! كلا .. كلا .. ماذا صنعت ؟ هل جننت ؟ اجل ، لقد جننت !

وشربت مع ولي في تلك الليلة مقادير هائلة من الخمر ... ومضت الساعات وانا غائبة مضيعة الرشد . ولما استفقت شاعدت ولي فوق راسي ، وسمعته يقول : « هلمي .. هلمي يا حبيبتي لنتزوج الآن ، وفي غفلة عن الجميع .. »

وكنت قد اخبرته صراحة قبل خروجي معه اني عدلت عن الفكرة وان الزواج لا ينقذني من شقائي ..

ولكني نهضت في ذلك الصباح الباكر ، ومشيت معه كالمجنونة ، وذهبنا الى الجهات الرسمية ، فعقدنا زواجنا .

وسمعت الين بما تم فجن جنونها .. وعنفتني ، فاتذعت لها في القول ، واخبرتها صراحة باني راشدة لا أتوقع منها النصح .. ثم امرتها بأن تستعد للسفر الى نيويورك .

وفي نيويورك ، اجمعت اكثر الصحف ان خبري الساعة هما : تنازل الملك الفونسو عن عرش اسبانيا ، وزواج ليليان روث من طيار شاب !

ورآني الطبيب ــ الطبيب (بيل) النفساني ــ وسألني عن زواجي ، وسألني عن سبب تسرعي .. وعلم اني اقدمت على الخطوة الخطيرة دون روية ، وان الآمي واستقامي سلبتني اتزاني ..

وقطب الطبيب العظيم .. وفكر .. ثم اشار علي ان اغادر البلاد واذهب الى اوروبا مع زوجي فقط ..

وكان هذا الطبيب هو نفسه الذي بعث بي بعد ستة عشر حولا الى مصح العقول المريضة !

٤

هل كنت اقترن بولي لو لم اشرب الخمر ؟ لم اكن مدمنة بعد في ذلك الحين ، وعندما كنت اشرب ، كنت الجأ الى الخمر هربا من الفكر وابتعادا عن الذكريات . أو كما كنت اتبجح « الخمر دواء لي ، ومتى شفيت ، كففت عن الشرب ! »

ودون ان اشعر او اعلم ، تلقيت الدرس الاول في سحر الخمر . فانا بعد احتساء قدحين . انقلب الى تلك الفتاة التي اردت ان اكونها — حرة ، لا ضابط لي ، ولا كابح لاحاسيسي .. حرة منطلقة من جميع قيود الضمير .. حرة قادرة ان أنهل من ينبوع الحب والشهوة ما اشاء وما اطلب وما استطيع !

وعندما التقيت ولي لاول مرة راودتني نفسي الثملة على اقتطاف الزهرة . قالت هذه النفس الامارة :

« اليس من الرائع ان تذهبي الى مكان ما مع هذا الطيار الجميل ؟ »

ولكن ضميري الواعي قال محذرا :

« لا يا ليليان ، فهذا لا يليق بك ، انت حزينة على زوجك »

وشربت كاسين اخريين ، فانسيت كل شيء عن الضمير وعن الزوج الراحل .. وانفتح في وجهي الباب الموصد ...

بل انفتحت جميع المصاريع ، وظلت تنفتح فيما تلا ذلك كلما جرعت كاسين مترعتين دفعة واحدة !

●

وكان الطبيب كما مر قد اوصاني بالسفر الى اوروبا ، فعملت بمشورته وهناك اكتشفت اني حامل ، فاحترت في

امري ، هل نذهب الى اوروبا ؟ اضع المولود ؟.

ثم اني لا ارغب في اي طفل ما لم يكن ابن دافيد ، ودافيد قد قضى دون ان يثمر ، فمالي وللبنين ؟

وطفقت آخذ الادوية والعقاقير لاتخلص من الجنين ، وتم لي ما اردت في باريس ، ولكني كدت ادفع حياتي ثمنا لمحاولتي .

فقضيت اياما بين الحياة والموت ، ابللت بعدها لاستأنف مع زوجي حياة اللهو والعبث .

ونصحني الاطباء ان اقلل من الحركة والخمر ، فلم آبه لنصائحهم بل تماديت واوغلت في فسقي .

على ان رد الفعل بدا يظهر رويدا رويدا .. واخذت السوداء تعقب كل ليلة من ليالي الساكرة .. اخذ هذا المرض الخبيث يستنفد امره ، حتى انتابني من تاثيره شبه خبل .

ورجعنا ، بناء على رغبتي ، الى اميركا ، ولما نزلنا في نيويورك في اواخر اب ١٩٣٠ ، كان ما قضيناه في اوروبا يبلغ شهرين من الزمن ، وما انفقناه — وبعبارة اصح وادق — ما انفقته انا ، لا يقل عن خمسة وعشرين الف دولار !

على اني سرعان ما عوضت على نفسي اضعاف ما انفقت . وكان للمال تاثير تافه علي ، لم اقم له وزنا في ذلك الحين ، لم احفله .

وكنت اعمل كثيرا .

ولكني كدت اقيم الكثير من الحفلات ايضا . ففي كل اسبوع كنا انا وولي ندعو الاصدقاء الى بيتنا اكثر من مرة واحدة .

واشتريت سيارة فخمة كلفت شركة السيارات اكثر من عشرة الآف ، ولكنها باعتها لي بأربعة الآف واستغلت اسمي في دعايتها .

ولا شك ان اي مهراجا في الهند كان يتمنى ان يحصل على هذه

السيارة ، فهي تقيد اللحظ ، ولا تمر في شارع دون ان يلتفت الناس في اعجاب وذهول .

وابتعت لامي مقادير هائلة من الملابس والمجوهرات ، كما اقتنيت خاتما دفعت فيه عشرة آلاف دولار ، وقفازات مطرفة بالجواهر .

وانفقت المال دون حساب ، وبددته في وحشية .. فما قيمة المال ؟ بعد ذهاب دافيد ؟

وتضاعف حنيني اليه . وكنت في كل ليلة ، بعد هجوع ولي استسلم لحزني ، فأذرف الدمع السخين ، واقول:

« دافيد .. دافيد .. اين انت ؟ »

كان تعاطي للمسكر اثناء العمل محددا بساعات معينة .. فكنت اشرب اربعة اقداح من الويسكي بعد الانتهاء .

اما في ايام الاحاد فقد كنا نذهب الى حانة عظيمة يقصدها علية القوم ومشاهير النجوم والمخرجين .. كنت الجها في خطوة متزنة واعية ، ولا اخرج منها الا مترنحة متمايلة متكئة على كاهل ولي .

كنت اقابل فيها بالتجلة ، واودع بنظرات السخرية ... وكنت ابكي واضحك وانا ذاهبة ، وكنت اسمع الهمس ، واري في عيني ولي نظرة الالم واللوم ، فاسخر منه ولا ابالية.

●

وعرفت في احد الايام شابا في الرابعة والثلاثين من عمره، قدمه الي احدهم قائلا :

« القاضي شاليك ، صديق حميم ، وخل معجب بك ! »

وخفق قلبي للرجل ، وقارنته بدافيد في مخيلتي ، فالفيته صنوا له في كثير من نواحي شخصيته .

ولم نفترق في تلك الليلة الا على ميعاد ، وكان ولي قد ذهب الى مسقط راسه .

وتكرر اجتماعي بالقاضي وخروجي معه .. وقال في احدى الليالي وهو يصحبني الى البيت :

« ومتى تنوين السعي الى الطلاق ؟ »

فارتجفت من هول المفاجاة ، غير اني قلت :

« ومن قال ذلك ؟ ان زوجي شاب طيب وهو يحبني .. »

قال : « ولكن لا بد لك من الطلاق .. »

واجبت وكاني مسيرة او مسحورة : « اجل .. لا بد منه فهل تقوم انت بالاجراءات الضرورية ؟ »

فقبلني ، وغادرني — لقد احببته واحبني ، وهو لا غرو ينوي اتخاذي زوجة له ، ولولا ذلك لما اصر علي بوجوب التحرر من رباط الزوجية .

ونلت وطري ، وطلقت (ولي) ، واعطيته قبل ان يفارقني المرة الاخيرة ثمن طائرة صغيرة ..

وقد مضى الفتى وهو ينشج باكيا ، وكان يحبني ، ولكنه طفل لا يفهمني ، فانا ابنة عشرين !..

وتناهى الي بعد ايام ان حبيبي القاضي مشغول القلب في شيكاغو بفتاة غيري . فركبت الطائرة اليه وطلبت محادثته في الفندق الذي ينزل فيه — وكان الوقت ليلا . فهرول نازلا ، واراد ان يقبلني ، فابتعدت ..

وقلت وانا احدجه بنظرة صارمة :

« احقا ما قيل من تعلق قلبك بفتاة ثانية ؟ »

فتريث ثم اجاب : « وهل حاسبتك على تصرفاتك ؟ »

قلت : « انني لم ار رجلا آخر سواك .. وان كانت هذه طريقتك فالوداع .. »

وخلفته ورائي وذهبت الى المطار . ورجعت ادراجي وانا اشقى امراة .

وانغمست ثانية في الاعمال ، وحاولت نسيان هذا الرجل وزارني القاضي ، ولكني تظاهرت بقلة الاكتراث ، وقلت له ان الاساءة متى جرحت لا تنسى ..

وذهبت اليه بعد ايام وجابهته بقراري الاخير ، قلت :
« لقد احببتك ورضيت بالابتعاد عن زوجي .. بل بالطلاق منه من اجلك ، فما قولك ؟ اتريدني ؟ »

قال : « وكيف لا ؟ »
قلت : « وكيف ؟ »
قال : « متعة ولذة وسكر ، كلما شئت ورغبت ! »

وتركته دون ان احر جوابا . وفي اليوم التالي رحلت الى هوليود ، لقد خدعني .

وشعرت بالشقاء يضبث بمخنقي ، انني فقدت ولي من اجل هذا الماكر ، وهاانذا اعيش وحيده مع رجال لا يطلبون الا متعة ليلة .

واقبلت على الخمر اغرق فيها همومي ، وجعلت اضاعف الكمية التي كنت اشربها مع ولي .

ولما عرضت علي شركة وارنر عقدا مدته ثلاث سنين ومرتبه الف وخمسمئة دولار في الاسبوع ، اتصلت بالقاضي وبينت له الحقيقة ثم عقبت اقول :

« واذا ابرمت العقد مع الشركة مكثت هنا .. فهل ترغب في ؟ هل تريدني ؟ »

فاجاب : « انني قادم الى هوليود في عيد الميلاد ، فانتظريني وستحدث مليا » .

ولكني فاجاته بالحضور بذاتي الى نيويورك في اليوم التالي

فشدهته المباغتة وحدق الى وجهي ، واطال التحديق ، ثم اخذني بين ذراعيه وقال :

« انت زوجتي ، فمتي نبني على بعضنا ؟ »
قلت « غدا .. غدا .. غدا .. »

وسجلنا زواجنا رسميا في التاسع والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٣ .

وتحدثت الصحف باسهاب وفي صفحاتها الاولى عن هذا الحدث .. وقالت متأسفة اني تخليت عن مستقبلي المسرحي والتمثيلي ، ثم تمنت لي السعادة والهناء .

وكانت حفلة الزفاف رائعة لم تشهد لها المدينة الكبرى مثيلا . ولكني ، ما كدت اخلو به — بزوجي — حتى اصابني ما اصابني يوم اقترنت بولي ، وتساءلت بجنون :

« والان ماذا فعلت ؟ لماذا سعيت الى تحقيق هذا الزواج ؟ اني لا اهواه ! »

وحنت نفسي الى الخمر ، وظمئت روحي . وسألته :

« الا يوجد المزيد من الشمبانيا ؟ »

فاجاب : « الكثير ، ولكننا لا نحتاج اليه ! »
وادناني منه .. ادناني من جسده .. فانا امراته ..

وذهبنا الى ميامي ، وخضعت لسلطان المسكر في خفية عن زوجي ، ثم جهارة .. حتى استحوذ عليه الغضب والاسف ولما قفلنا راجعين خاطبني متسائلا :

« الا تكفين يا حبيبتي ؟ الا تنقطعين عن الشرب ؟ »

فاجبت : « وهل سببت لك عناء ؟ وهل الحقت بك عارا ؟»

وبعد صمت قصير اردفت : « لا تتسرع فساكون نعم الزوجة لافضل قاض .. فاطمئن .. كن واثقا من رجاحة عقلي ! »

وكانت الشقة الي انتقلنا اليها رائعه حقا .. ونظرت الى نفسي وتأملت فيما يحيط بي ، فاكتشفت اني محظوظة مرضي عني — لقد ظفرت بزوج له في دنيا العمل مجال فسيح ، ومستقبل زاهر .. وقد وضعت في المصرف رصيدا من المال يسيل له لعاب الكثيرين ، فما حاجتي لاكثر من نصف مليون دولار ؟ وماذا اطلب فوق هذا ؟ انني محظوظة .. آه.. محظوظة !

ولكن الشيطان الكامن في قرارتي لم يرض بقناعتي ، بل جعل يتململ في داخلي ، ويتحرك ، ويتأهب ليتقمص شخصيتي، وليبرز من مخبئه في اهابي ..

واقترحت على شاليك ان نحيي حفلات اسبوعية للاصدقاء والخلان متعللة بميلي الى الترفيه عن نفسي واستبقاء علاقات الود مع الاصدقاء .

وهكذا شرعنا ندعو الاصدقاء الى حفلاتنا الناجحة ، وكان من جملتهم نجوم متالقة في عالم التمثيل والسينما .

وقد سر زوجي كثيرا ، وصرح لي بعد الحفلة الاولى انني كنت خير مضيفة رآها في حياته ، وبنوع خاص لاني لم اشرب الا كاسا واحدة .

واجبته وانا اضحك : «ثق من اني لا احفل الخمر ولا اشربها الا اذا اردت . »

ولم يعلم اني كذبت عليه .. فانا قبل ان تحين ساعة مجيء المدعوين شربت خلسة ما لا يقل عن نصف زجاجة من الويسكي .

وكانت هذه عادتي التي درجت عليها في الآونة الاخيرة ، فانا اشرب قبل الميعاد فأرتوي ، حتى اذا توافد الناس لم اقرب الخمر لتأكدي من ان زوجي يراقبني .

وشرعت بعد مدة من الزمن اشرب قبل الحفلة وبعدها ،

وكانت انيستي في الشرب في آخر الليل الخادمة التي كانت تشرف على المطبخ .. كنا نعب المسكر ، عبا في غفلة عن زوجي الذي يكون قد لاذ بفراشه مطمئنا مستريح البال !

كان زوجي ينام هادئا قرير العين ، الا انني كنت على نقيضه اخشى النوم وافزع من الفراش ، فالاشباح كانت تلم بي ساعة اضطجع في سريري ، ودافيد كان الطيف المثابر على زيارتي والرقود بيني وبين زوجي .

وما اكثر ما حاولت الصراخ في مثل تلك الليالي ولكن لساني كان يلتصق في حلقي ، فأثب كالمجنونة واهرول الى المطبخ فاحتسي الخمر وارجع فاستغرق في نوم ثقيل ، ولكن خال من الاحلام

●

عندما ترغب امراة في طفل ولا تستطيع ان تحمله ، ينقلب حنينها الى عذاب . وقد ايقنت وانا اتالم من حالتي ان الامومة تجلب لي السلام المنشود فتشغلني ، وتشرك حياتي ببضعة مني . كما انها تنيلني القناعة وتجعلني اسكب مشاعر الحب الحبيسة في قلبي — الحب الذي لا استطيع ان اهبه بعد دافيد الى احد من الرجال — كما قلت اسكب هذه العاطفة الجياشة على فلذة مني لا يسعني الا ان اعبدها وافديها بروحي وفؤادي .

وعبثا استشرت الاطباء فاني لم افز بنتيجة ايجابية ، لان العقاقير والادوية التي لجأت اليها عقب حملي في المرة الاولى قد افسدت في جسدي عنصر الامومة . واستسلمت اخيرا لحكم القدر وقنعت بأني امراة مقطوعة النسل ، اي امراة جنت على نفسها بحماقتها لتصبح عاقرا .

ومع ذلك كان علي ان انهمك في عملي ، ولعل العناية ببعض اطفال الفقراء تبعدني وتنأى بي عن الافكار الجديدة .

ولجأت الى هذه الطريقة فاندمجت في جمعيات خيرية تعنى بالاطفال ، ونشطت في تادية أعمال البر ، وفي جمع الهبات والتبرعات لليتامى والمساكين . بيد أن المغرضين من الناس تخرصوا علي ، واتهموني بأني توسلت بالخير لأعلن عن نفسي ..

ولم املك نفسي في احد الاجتماعات من التصريح امام الملأ بأني حزت الشهرة والصيت في الدنيا قاطبة ولا ارغب في المزيد ، بل اني على قدم الاستعداد لرفع استقالتي ان غلبت الشبهة على الثقة والطمانينة .

ووقع اخيرا ما جعلني استقيل نهائيا وارفض كل رجاء في العدول عن انسحابي . فقد انفقت الف دولار من خزانة الجمعية ثمنا لكمية من الاحذية والملابس كان بعض الاطفال في حاجة اليها .

ولما عقد اجتماع مجلس الادارة جهرت اكثر من واحدة ان هؤلاء الاطفال عاشوا سنين طويلة دون الاعتماد على مساعدتي ، ولهذا لم يكن من حقي أن ابدد هذا المال !

●

ومع اني قنعت بالبيرة في النهار والعنبرى في الليل اثناء انهماكي في اعمال الاحسان الا ان اعصابي بعد استقالتي توترت اكثر من المعتاد حتى اصبحت اشرب الكحول القوية ابتداء من ساعات الصباح .

فكنت أجرع بعض هذا المسكر وانا اتناول طعام الافطار في غفلة عن زوجي .

وحدث ما لم يكن في الحسبان ، حدث ما ادرجني في قائمة المدمنين الذين سممت الخمرة دماءهم .

فبينما انا اتجول في السوق مع الخادمة اذ بي اشعر بغتة

بدوار شديد يأخذني في راسي حتى لأكاد انهار على الارض ! وجعل العرق يتفصد من جبيني ، واخذ جسدي يرتعش ويرتجف . وعاونتني الخادمة على الدخول الى حانة صغيره وطلبت لي ماء . ولكن صاحب الحانة تفرس في ملامحي وهز راسه ثم قال :

« ان الماء عديم الجدوى قليل النفع ، ولا يقويها وينعشها الا كأس من الخمر »

واسرع الرجل فجاءني بكأس مترعة ، فلما جرعتها بيدي المرتعشه المتشنجة احسست بعودة الروح ، فتنفست الصعداء وابتسمت للرجل شاكرة .

وقال الرجل وهو يشيعنا الى الباب : « تذكري يا سيدتي نصيحة محنك مجرب، لا تخرجي من بيتك الا بزجاجة صغيرة !»

وادركت صواب رايه فانا اصبحت عاجزة عن قضاء النهار مكتفية بالكمية التي اشربها صباحا ، فقد اخذ جسدي يطلب المزيد ، واخذ دمي يلح في طلب غذائي اليومي ، ونما حنيني الى المسكر مع توالي الايام وشرعت احمل معي زجاجة مليئة بالراح .

واذا بي اصبح مخلوقة تختلس الخطى الى زوايا الطرق ومصاعد البيوت لتشرب ما في حقيبتها . ولم يكفها ما في حقيبتها فضاعفت الكمية .. وعادت فضاعفتها .

وقالت امي ذات يوم : « انت تشربين كثيرا يا ليليان » ولكنها لم تكن تعلم ، ولا زوجي كان يعلم مقدار الكمية التي كنت احسوها كل يوم مع انهما حدسا من حركاتي وانفعالي وتوتر اعصابي ان المسكر استعبدني واسترقني !

وقد اجبت امي على كلماتها تلك وانا لا اخفي امتعاضي !

« اواه يا اماه ! انني قادرة على الامتناع عن الشرب متى اردت .. الم افعل ذلك ؟ الم انقطع عن المسكر كلما شغلني شاغل ؟ »

وفئت يوما الى نفسي فعزمت عزما اكيدا على الامتناع عن الخمر . ومضت الساعات ، والفيت نفسي في آخر النهار اذرع ارض حجرتي وانا اقول مهتاجة :

« امجنونة انا ؟ لماذا اشعر بأني مجنونة ؟ »

وعضضت على شفتي حتى ادميتها ، وحاولت ان اتحكم بجسدي المرتجف .. « ما هذا ؟ ما الذي اصابني ؟ الأني لم اشرب منذ ساعات امنى بهذا الضعف ، ماذا يجري لي؟ لعل عقلي تنطفىء بالتدريج شعلته ! »

وارتميت على مقعد وشخصت الى السقف . وطفق جلدي يلسعني كأنه عقرب متجسم .. فانكمشت على نفسي ، وتحسست صدري وخصري وساقي ، وحككت كل جزء من هذا الجسد حتى انبثق الدم منه .

انني اسير بسرعة نحو الجنون . انني اوشك ان انفجر . ولا يتسنى لي احتمال هذا العذاب .

وبيأس قاتل قفزت الى المرآة الكبيرة وانهلت عليها لكما بقبضتي حتى تحطم الزجاج وانتثر .

وسالت دمائي من جروحي الثخينة .
سالت من مئة جرح .

●

قد يطرد الالم الفزع والهلع .
قد يلاشي الم الجسد وصب الروح .
ولكن .. لم تشف دماء جسدي عذابي ، او تلاشي دائي .. وشعرت انني اتجه الى النهاية بسرعة البرق .. وانني اموت .. اقضي نحبي .. وقمين بي ان اتخير ..
واخترت بعد ان تخيرت
اخترت الحياة على الموت
سلمت للمسكر قيادي
وشربت حتى ثملت ..
اواه ..

٥

لا انكر ان بعض الاوقات السعيدة مرت علي وانا اعيش مع زوجي . واكثرها هناء كانت عندما اعددت لامي شقة صغيرة مجاورة لشقتي وفرشتها بأفخر الاثاث ، ثم ارغمت امي على احتلالها بعد ان قدمت لها هدية عيد ميلادها — شيكا قدره عشرة الآف دولار !

وعرض علي الاشتراك في تمثيل احد الافلام . فبحثت الامر مع زوجي ، واقنعته بالموافقة والقبول بعد ان بينت له ان العمل ينسيني المسكر ، وقد اقلع عنه في النهاية .

ومر اسبوع كامل لم اذق اثناءه الخمر . وكنت قد سافرت بعيدا عن المدينة مع المصورين ولاقطي الصوت . ولما رجعنا الى نيويورك ، دخلت بيتي ، ودقات الساعة تشير الى الثالثة بعد الظهر .

وجلست انتظر مجيء القاضي زوجي ، واتأمل في الرسائل التي تنتظرني . واستحوذ علي الانفعال القديم . لم تكن بي رغبة الى الشرب ، ولكني شعرت بالضجر يستحوذ علي ووددت ان اظهر بمظهر المغتبط المبتسم الهادىء عندما يأتي ، ووددت ان تتألق عيناه ساعة يقع طرفه علي . ودخلت الحمام حيث اخفيت زجاجات الخمر وشربت .. شربت كثيرا . فلما رجع زوجي في منتصف الخامسة الفائي جالسة على الاريكة وقد احمرت عيناي وتوهج وجهي .

ووقف مغضبا وقال : « هل امضيت الاسبوع وانت في مثل حالتك هذه ؟ »

www.elromancia.com

فاجبت بصوت ثقيل مضطرب : « اقسم لك على اني لم اذقها ، لم اذق الخمر . سل امي ، فهي تصدقك الخبر . »

واحتواني بين ذراعيه ، وقال : « ولماذا شربت اليوم يا ليليان ؟ »

فقلت وانا انشج : « لا ادري ، لا ادري ، ماذا حداني على ذلك .. ولن اعود الى الشرب مرة اخرى ، اني اعاهدك واعدك ! »

●

ورأى زوجي ان اشغل نفسي وفكري بدراسة للقانون ، ففي التفكير العميق شفاء من الادمان . ولكنه لم يصر علي بوجوب الاقلاع تماما عن المسكر ، فهو يجهل عواقبه ، ولهذا كان يدعوني احيانا الى مشاركته في كأس . فكنت ألبي دعوته بشيء من الفتور لان الكمية التي كنت اجرعها في الحمام كانت تكفيني وتخدر اعصابي . وكان فتوري هذا يجذل قلبه، وكان يعزوه الى قلة احتفالي بالخمر .

كنت اقضي ساعة في الحمام واحرص على ترك المياه تنساب بشدة حتى يسمع زوجي صوتها . وكنت ابان ذلك اشرب بسرعة ، وكأن في الخمر حياة وروحا . وعندما كان يسألني احيانا عن علة تأخري في الحمام كنت اجيب ضاحكة :

« انني اجمل نفسي لك يا زوجي ! »

وكنت دائما احرص قبل مغادرتي الحمام ان اتلمظ بدواء له رائحة تقوى على رائحة الخمر .

ولكنه لاحظ في يوم اني اكثرت الشرب ، فلم يلمسني بل حدجني بنظرة حزينة ودفن وجهه في صحيفته .

واثقل علي السكوت فقلت : « أنا آسفة يا عزيزي »

فلم ينطق القاضي بكلمة .

واعدت الكرة فقلت : « انني آسفة كثيرا »

فلم يزد على قوله : « وانا أعلم » .

« ولماذا لا تتكلم معي ؟ »

فما اجاب ، وساد الصمت . وعيل صبري ، وضاق صدري ، وهتفت وانا اشرق : « لن يحدث ذلك مرة اخرى ، لقد توترت اعصابي فشربت مرغمة » .

فما اجاب ، وساد الصمت ..

« الا نذهب الليلة الى السينما ؟ خذني الليلة ارجوك »

فما اجاب وساد الصمت

فصحت : « تكلم .. تكلم .. قل شيئا ... »

فما اجاب ، وساد الصمت ..

وطاشت سهامي ، فوثبت من مكاني كمن به مس ، ونفسي تناجي نفسي : « لا ، لا ، لن احتمل ، لن احتمل ، لن تكون لي اعصاب تتيح لي الاحتمال . ساقتل نفسي ، ساضع حدا لحياة هي المأساة بعينها »

وتكررت هذه المشاهد التي يعلن فيها زوجي عن غضبه بسكوته وصمته ، فكنت احيانا اهرع الى غرفتي ، واحيانا اخرى كنت اندفع الى الحمام فاشرب حتى الثمالة .

واردت مرة ان أؤثر عليه بصورة فعالة فجرعت كمية من صبغة اليود ، وصرخت من الالم . ولما جاء الطبيب لم يظهر خوفه بل طلب الي ان اشرب بعض الحليب واضطجع في الفراش .

وقطعت مرة شريان يدي ولوثت فمي باليود ، ثم اندفعت الى غرفة الاستقبال بحالة يرثى لها !

ولكنه لم يبال بما رآه بل نظر الى الدماء النازفة بهدوء وبرود والى فمي المخضب باليود بقلة اكتراث وجمود .

وقد اثارني هدوءه فصحت وانا ازفر : « سوف تندم ، سوف تعض اصابعك من الحسرة ! »

وتهالكت بصورة تمثيلية على الارض .
فلم يحرك ساكنا بل استمر يقرأ .

وجن جنوني فنهضت واقفة كامرأة اصيبت ، ثم هجمت عليه وانا اصيح : « ايها الجلف ايها الوحش ! اين قلبك ؟ انت تطلب لي الموت ! »

وارتفع نحيبي واصابتني نوبة من الانفعال الهستيري كان معظمها تمثيل ممثلة ! ولكنه تحرك في تلك الدقيقة فضمني اليه وهو يقول : « خففي عنك يا عزيزتي ، اني احبك ، اهدئي »
وبكيت وقلت : « لا ادري لم افعل هذا ، اقسم لك اني مستعبدة مكرهة !
وقضيت بضعة ايام في مزرعة ، وجعلت كل يوم اتناول الحليب بجرعات كبيرة عسى ان انسى الخمر .. ولما عدت الى نيويورك احسست بجسدي يثور ويتمرد ويطلب ما حرم منه .. ولم استطع ان اكبح جماحه ، فنهضت الى المطبخ وتناولت زجاجة متنكرة باسم الخل وجرعت محتوياتها .

ورجع زوجي من عمله ، فرآني في حالة سكر شديد فلم يضيع وقته بل صحبني الى طبيب شهير . واجرى الطبيب فحصه علي ، وهز رأسه ، وعقد ما بين حاجبيه ، ثم اشار بوجوب الامتناع عن المسكر ، والا قضيت نحبي قبل مضي خمس سنين ..

وعملت بنصحه فاخذت اشرب قليلا من الكونياك .. ولكن الكمية القليلة تضاعفت بسرعة عجيبة .. وتمرد جسدي ثانية فلم اكتف بالكونياك بل عدت الى الويسكي .. عدت الى الويسكي اطفىء به اللهيب .. واحرق الكبد .. واقضي على النفس الخائرة ..

وكان لي صديقة تمحضني الود . وقد فطنت الى ما اتوق اليه من الظفر بالطفل ولو بالتبني ، فانهت الي ذات يوم ان في انكلترا طفلة في الشهر الخامس من عمرها ، فقدت والديها ،

وان في مكنتي ان شئت ، اتخاذها ابنة لي .. ولما نظرت الى رسم الطفلة خفق لها قلبي ، واعربت لصديقتي عن لهفتي الى المجيء بها الى اميركا لتصبح لي ابنة .

وقد قبلتني هذه الصديقة الوفية ، واكدت لي بانها ستبذل طاقتها للمجيء بالطفلة .

واستخفني الطرب فاحييت حفلة عظيمة في بيتي جمعت فيها مبلغا طائلا من المال انفقته على مختلف وجوه البر .

وتبين لي في اليوم التالي اني لن اظفر بالطفلة الموعودة قبل مضي خمسة اشهر ، فابتأست ، واطلقت لياسي العنان . وافضيت لاحدى الممثلات الصديقات بما يهجس في اعماقي ، فما كان منها الا ان اقترحت علي مرافقتها الى كاليفورنيا ، فهي ذاهبة الى هناك مع زوجها ليمثلا دور البطولة في فيلم جديد .

وراقتني الفكرة ، فاطلعت زوجي عليها فاستحسنها هو الاخر ، واستصوب رحيلي مع صديقتي .

وذهبت .. رافقت الزوجين بعد ان اخفيت خمس زجاجات من الويسكي في حقيبتي .

ذهبت الى كاليفورنيا ، ولم ادر ساعة غادرت بيتي ان السنين الست التي قضيتها مع زوجي لن تتجدد او يزداد عددها .. لم ادر ساعتذاك اني سانخلى عنه وانه سيتخلى عني !

وجاءني منه بعد ايام كتاب يخبرني فيه ان الطفلة لن تاتي ابدا وان املي في تبنيها قد خاب .. ثم انهى الي وهو يختتم كلمته بانه قادم مع امي في غضون ستة اسابيع الى كاليفورنيا .

وصدمني الخبر ، منيت النفس في الايام الاخيرة بالفوز بهذه الطفلة ، فاذا بالامل ينهار بغتة ودفعة واحدة ودون سابق انذار ..

وشعرت صديقتي وزوجها بما خالجني من مضض .. فاصطحباني الى مرقص شهير ، وقدماني الى صديق لهما يدعى (آرث) وكان في وجهه شبه كبير (بينج كروسبي) وكذلك بأبي — فهو ازرق العينين خفيف الشعر اشقر ، جذاب البسمة ، وكان ذا فكاهة لاذعة .

وقد تساءل الشاب بعد فترة فقال : « وهل من المقضي علينا ان نمكث طوال الليل في هذا المكان ؟ هلم ، هلم الى المدينة ، ولنجل في طرقاتها ساعة »

واظهرت صديقتي وزوجها قلة مبالاتهما بالجولة الليلية ، غير اني وافقت بعد شيء من التردد .

وجلنا في انحاء المدينة المضيئة المشعة بالانوار الخفاقة . ثم عرجنا على حانة صغيرة عبينا فيها عددا كبيرا من اقداح الراح . وقد اخبرني ونحن نترع الاقداح ونحسوها دون تمهل انه هادىء الطبع في العادة ، ولكنه متى اسرف في الشرب فقد اتزانه واضحى رجلا ذا خطر على اصدقائه .

وقد اجبته على قوله فزعمت اني ملمة بحالته الماما تاما وان روحه كما وصفها هي صنو لروحي انا !

وبدا عليه الاقتناع والسرور .. وكأننا تكلمنا اللغة التي لا يفهمها سوانا . او كأن الراح قد قربت بين قلبينا وصهرتنا في بوتقة واحدة من التفاهم والود .

واتفق في اليوم التالي ان عرضت على شركة المتروجولدن ماير تمثيل رواية لها فوافقت دون تردد . وعرجت في ذلك اليوم على منزل شارلي شابلن فاخذت رايه وشربت عنده عددا من كؤوس الويسكي .

ووصلت امي مع زوجي في الثالثة صباحا من تلك الليلة بالذات . فشاهداني منهارة على الاريكة وقد ضيع المسكر رشدي . ولما قدما الي القهوة المرة تمكنت من الترحيب بهما بصوت متعلثم .

ولكني سمعتهما يتهامسان وسمعته يقول لامي : « لا جدوى مما نسعى الى تحقيقه ، لقد خسرت هذه المراة نفسها ، ولن تعتم حتى تندرج في زمرة المعتوهات من النساء ! »

وقد اجابته امي وهي تغص بريقها : « لا ادري ماذا دهى ابنتي ؟ انها مريضة ، مريضة بعقلها وجسدها ! »

وتبع ذلك ايام سوداء قاتمة ، امتنع زوجي اثناءها عن العمل ، بل كف عن مغادرة المنزل . وجعل يقضي سحابة نهاره في المطالعة والحديث مع امي .

ورايت نفسي مكرهة على الالتفات ثانية الى آرث . وخيل الي اني احظى بالمتعة والسلوى معه فقط . وكنت كما اكتشفت استطيع ان استرجع حقيقتي اثناء اختلائي به ، كما داخل روعي انه ينتمي الى الدنيا الافضل !

ولما بلغت روحي التراقي واستفحل في قراري يأسي ووحشتي جابهت زوجي بالحقيقة واخبرته صراحة اني لن اسافر معه الى نيويورك وان مستقبلي هو في هذا المكان مع شركة المترو جولدين ماير .

واجابني بجاش رابط ونفس هادئة بانه يرى الصواب فيما قلت ولكنه يرتأي ان اتريث حتى الصباح

ولما تبلج الفجر في اليوم الثاني ، لم يتغير في احساسي شيء مما خالجني منذ يوم ، ولكني جرعت كأسين قبل ان اجتمع الى زوجي ، حتى لا اهاب الموقف !

وبعد ان تحدثنا قليلا توغر صدره غيظا فانقض علي ودفعني بقوة وعنف . فسقطت وصحت . وجاءت امي على صوتي فزجرته وانبته . ونهضت انا فطردته شر طردة وانا اقول :

« اذهب .. اذهب .. فانا لست لك . لقد اقرضتك المال ولن استرجع ما اعطيت ، فهو لك منحة مني ! »

وذهب زوجي في سبيله . وطفقت اصحب آرت في غدواتي وروحاتي . وجعلت اشرب معه ، واكثر من الشرب .

وفاجاني ذات ليلة بقوله : « يترتب عليك ان تكبحي من جماح شربك .. قيدي نفسك بالنظام ! »

ووومضت عينه ومضة الاشمئزاز . فغاص قلبي بين ضلوعي ، ولكني وعدته بالتقليل من الخمر . ثم تساءلت عن نهاية علاقتي به فأجاب :

«انت ما برحت متزوجة ، فما جدوى السؤال والاستفسار؟»

« ان كنت تبغي اتخاذي زوجة ، فسأذهب الى نيويورك للحصول على الطلاق » .

« انت محتارة في امرك ، فتريثي واعملي الفكر »

وغاب آرت عني يومين ، ورجع في مساء اليوم الثالث فوجدني ثملة متهالكة من السكر . فقال وهو يحدجني بنظرة مخيفة :

« ان اردت ان تشاهدي الصورة الحقيقية للخمر ، ولشرب الخمر ، وللذي يضيع رشده الخمر ، فانتظري ! »

وجاء بثلاث زجاجات ، واقبل عليها يعب ما فيها . وقال بعد ان اتى عليها : « انت حقيرة ! انت امراة متلافة ! »

وجعل يصفعني على وجهي . وحاولت الفرار ، فوضع ساقه امامي .. ووقعت على الارض وانا اتأوه وانئ !

لقد حاول اخافتي من عواقب الادمان ، فهل خفت ؟ هل ارتدعت ؟

والتقاني بعد ايام في حانة كبيرة شهيرة تغص في كل حين بعلية الناس ، وشرب معي حتى سكر وسكرت ، ثم ضربني بقسوة على وجهي ودفعني فوقعت ، وركلني بغلظة ، فصحت !

ورحلت الى نيويورك في صباح تلك الليلة المشئومة ، وآليت ان انهمك في العمل ، وقد عملت ونشطت ، حتى تلألأ اسمي ثانية ، فرجع الى قلبي ذلك الامل المفقود ، ورجعت الى روحي تلك الثقة التي بددتها الخمر .

والم بي زائرا في المسرح في احدى الليالي رجل يدعى مارك هاريس ، وكان مديد القامة عريض المنكبين متين البنيان . وقد جاوز الخامسة والثلاثين من عمره .

وما زال بي يحدثني حديث الاعجاب حتى اذعنت له ورضيت ان ارافقه بعد انتهاء دوري الى اندية المدينة وملاهيها .

وكانت تلك الليلة فاتحة عهد جديد بالنسبة لي . فطفقت اخرج كل ليلة مع مارك . وكان بجانب رشاقته محيطا بجميع متطلبات السلوك الحسن في المجتمعات . وكان يحرص على راحتي ويرعى صحتي ، ويبادر الى خدمتي كلما احتجت الى شيء . وفي نهاية الاسبوع الاول من معرفتي به ، باح لي بحبه واخبرني صراحة انه كلف بي متيم بهواي .

واتصل بي آرت من مكان ناء واعتذر من قسوته ووحشيته .

وهكذا وقعت في حيص بيص — مارك من جهة يسعى الى الزواج بي ، وزوجي القاضي يتصل بي كل يوم ليسترضيني املا في عودة المياه الى مجاريها ، وآرت يرجوني ان ارجع اليه .

واختلط علي الامر فما عرفت ما يليق بي ان اصنع ،فلجأت الى الخمر وتعاطيتها بكثرة هائلة ، حتى اثرت علي فأديت دوري على المسرح في الليلة الاخيرة بطريقة اثارت فزع اصدقائي وخوفهم .

وزارني الطبيب في الصباح التالي وامرني ان انقطع عن العمل واعتصم بالهدوء والراحة في مكان لا توجد فيه الخمر .

وتمردت على امر الطبيب في البدء ، ولكني عدت فرضخت واشتريت منزلا في الريف وصحبت اليه الممرضة ، حيث انقطعت عن الناس واسلمت نفسي لعلاج دقيق ، كانت الممرضة اثناءه تحقن جسدي بماء الملح الذي يكره الانسان بالمسكر .

وتداعت قوتي وانهارت مخاوفي وجعلت اقضي الساعات وانا هائجة منفعلة لا يهدأ لي قرار . واخيرا ارسلت في طلب مارك هاريس ، ولما جاء ، لم ادعه ينتظر طويلا بل طلبت اليه ان يرجع معي الى نيويورك ونزلنا في فندق هناك ، واعطيت مارك جميع ما كان معي من النقود ، على ان يدفع لصاحب الفندق ما يترتب علينا دفعه للجناح الذي نزلنا فيه .

ومضى مارك في سبيله ، ولكن ادارة الفندق اتصلت بي بعد ساعة لتخبرني بين الدفع مقدما والرحيل . فدهشت واجبت باني ارسلت صديقا لي ليسوي الامور . وما عتمت ان غادرت المكان الى فندق اخر كان اصحابه يعرفونني .

ولكن مارك اتصل بي واخبرني انه اضطر الى الشخوص الى مكان ما لعمل سريع اقتضته ظروف طارئة .

فرجعت الي طمأنينتي ، بيد انه لم يعطني ما اخذه من المال لدى اوبته .

ومضى الاسبوع الاول علي وانا في هذا الفندق اقاسي الالام واتعذب من الاسقام . وعادني الطبيب ثم جاء طبيب آخر بعد ايام . وشعرت به يدغدغني فقاومت ما وسعتني المقاومة ، ولكنه افترسني اخيرا .. وكنت طيلة الوقت اشعر كمن سلطت عليه قوة هائلة لا قبل له على مقاومتها .

ولما اطلعت مارك على ما جرى ، سخر مني واكد انني كنت اهذي !

ومضت الايام والاسابيع ، ورجعت الى سابق عهدي

اشرب ليل نهار ، واحيي جميع ساعات الليل مع مارك في المقاهي والحانات . ولا نعود الى الفندق قبل ان يتبلج نور الصباح ، وكان ياخذ المال مني بلا حساب ، وكان يبدده بلا حساب ، وسمعت عنه الكثير ، والكثير الذي سمعت كان يشوبه ويصمه بالتلاعب والاحتيال .

وقد اعترف لي ان له ولدا في التاسعة من عمره ، فخفق قلبي اشتياقا ، وتراءى لي اني عثرت على ضالتي ، وان رعايتي للطفل هي الدواء والعلاج .

وانتقلت الى شقة فاخرة وانتقل مارك معي . وآلينا ان نتوب ، فاقلعنا عن المسكر ، ومضت الايام تباعا ، والصفاء مخيم على حياتنا والهناء شامل والدعة وارفة الظلال .

وقال مارك في عصر احد الايام : « ما قولك بكأس صغير ؟ ان كأسا واحدة لن ترجعنا الى سابق شقائنا »

فترددت هنيهة ثم وافقت .

وكان مارك يزمع ان يسافر في اليوم التالي الى ديترويت حيث ينوي عقد اتفاقية تجارية كما زعم . وكان صفر اليدين فاعطيته تسعين دولارا بدل السفر بالطائرة ، وخمسمئة دولار للنفقات الاخرى .

ولما اطمأن الى وجود هذا المال في جيبه جاء بزجاجة كبيرة من الخمر وجعل يشرب منها دون ان يقيم وزنا لاعتراضي وغضبي .

ونفد صبري وشعرت بأني اكاد ان اختنق فصحت فيه بصوت عظيم : « انت غير مستقيم ، فاذهب ، اغرب عن وجهي ! »

فنهض مارك من مكانه متظاهرا بانه ينوي مبارحة المكان الا انه انقض علي على حين غرة ولكمني في وجهي لكمة هائلة اطاشت صوابي وطرحتني على الارض .

ولما تنبهت بعد وقت طويل وجدت نفسي مضطجعة في فراشي وقد جلس مارك الى جانبي ، واحسست بالالم الشديد في وجهي وتذكرت كل شيء ، ونفرت ، فالتفت نحوي وقال باسما :

« لقد كسر حنكك ويقول الطبيب انك لن تقتاتي الا بالسوائل وان ذلك سيستمر ستة اسابيع كاملة » .

وشرعت اشرب الخمر مرة اخرى . فزارتني صديقة ، فهالها ما رات وحملتني على التو الى المستشفى ، حيث اشار الطبيب ان اشرب الويسكي حتى لا يقتلني الالم . وكان هذا سخرية اخرى للقدر !

ولما شفيت ودعيت الى المحكمة ، ثرت على ما رايت ، فقد غصت القاعة بالناس وتكاثر الصحافيون ، وايقنت اني سأتعرض للفضيحة والتشهير .

ورجوت القاضي وتوسلت اليه ان يجعل المحاكمة سرية . ولكنه ضن علي برجائي ، فاستعرت نار غيظي واسمعته من الكلام القارص ما أنبني عليه بشدة واتذرني بالعاقبة الوخيمة ان تماديت .

واجلت القضية الى يوم آخر . وما زال القاضي يؤجلها حتى ضجرت من المماطلة فنزلت عن حقي ضد مارك .

وسافرت الى شيكاغو لاشتغل هناك ، عسى ان انسى ما اصابني من الهوان ، ولكن الدعاية السيئة سبقتني الى المدينة واخذت الصحف تكتب عني المقالات الضافية ثم تلقبني بالنجم الساطع المصنوع !

وخاب املي فلجأت الى المسكر واكثرت من الطعام حتى امتلأ هيكلي باللحم وانتفخ صدري وبطؤت حركتي . ودب اليأس الى قلبي ، وقد خبت شعلة صيتي ، وانطفأت شهرتي ، ولم اعد ليليان روث ، التي ملأت الاسماع والابصار وطبق اسمها الخافقين ، بل اصبحت ليليان روث السكيرة ، القلقة ،

المشعثة الشعر ، الجاحظة العينين ، المهتزة اليدين !

لقد هويت .. هويت من السامق .. فواتعساه !

وجاء مارك الى واشنطن . جاء دون ان يعلم احد بمجيئه . واقبل علي في النادي ليلة مجيئه ، وقال وعيناه تتوسلان :

« الا تغفرين ؟ الا تصفحين ؟ ايمكنك ان تنسي حياة برمتها لاني لكمتك لكمة واحدة ؟ انا احبك ، احبك واعبدك .. وانت تعلمين اني احبك واني اعبدك ! »

كنت حزينة يائسة كسيرة القلب . كنت وحيدة ، وجاء مارك وعرض علي شيئا جديدا ، فردت الي روحي وتنفست الصعداء وانا اجيب :

« غفرت وصفحت فلنحاول مرة ثانية »

●

كانت غيرته تفوق كل غيرة . ورآني ذات ليلة وانا اتحدث مع رجل ، فهددني بالقتل .

وتوالى تهديده لي باللجوء الى العنف ، حتى اوجست خيفة منه ، وحدثت خادمتي بخشيتي ، فاقترحت علي ان اصحبها الى منزل ذويها . ووافقتها ، فغادرنا المكان خلسة الى بيت والدها الزنجي حيث نمت ليالي كثيرة في المطبخ .

ثم اني رايت ان اسافر الى كاليفورنيا . ولكنني فوجئت ذات صباح بدخول مارك علي مع ابنه . فانكمشت في مكاني خائفة واهرع هو نحوي وجثا قريبا مني وجعل يستعطفني ويقول : « انا لك ، انا حبيبك ، وابني ابنك ، فلنقترن ، ولنكون من انفسنا عائلة محترمة »

وذرفت الدمع ورنوت الى الوجه الوسيم والى الطفل المسالم الوديع ، ثم هززت راسي موافقة ، واصبحت لمارك زوجة شرعية في اليوم التالي .

وفي نفس اليوم اجتمع بمارك بضعة رجال وقضوا معه ساعة في حديث ونقاش . غادروا المكان زعم مارك انهم رجال اعمال واتني ان اعطيته عشرين الف دولار فلن يلبث طويلا حتى يصبح ثريا .

وكنت قد صفرت من المال في تلك الايام فلما اخبرته بادقاعي طلب الي ان اقترض . وترددت قليلا ولكني رضخت أخيرا فرهنت عقود التامين على حياتي .

ومضت الايام ، وانا اعيش مع مارك وابنه والمسكر . وكنت احرص على احتساء الخمر في غفلة عن الصبي . كنت اشرب باستمرار لانسى اني اصبحت صفرا تافها ، ولأخدر اعصابي المتوترة التي تكاد تتمزق وتتحطم .

ولم يتغير شيء فمارك كعادته ، تارة يبدو رحيما محبا ، وطورا يظهر من شراسته وقسوته ما يزيدني يأسا واسى . كان يضربني كلما ارتفعت سورة الخمر الى راسه . وكان لا يتحرج عن صفع وجهي امام ولده .

وكان يبتز المال ، فيرغمني على الاقتراض ومواصلة الاقتراض . وكلما تمنعت عن دفع المال كان ينالني بالاذى فيضربني ويجعلني اصرخ من شدة الالم .

وتناهى في قسوته في احدى الليالي ، حتى لم املك نفسي من الفرار والالتجاء الى رجال الامن . وقد شكوت امري اليهم ووقعت تصريح على القبض عليه . وقعته ودمائي تنزف من وجهي .

ولكنه ما كاد يخرج بالضمان الشخصي حتى جاء مكفهر الوجه متقلص العضلات ، فامسكني من عنقي وضغط حتى اوشكت ان الفظ انفاسي .

وصاح وهو يرى احتقان وجهي : « اكتبي .. اكتبي الآن انك كذبت على رجال الامن ، اكتبي لهم انك كنت ثملة ساعة

افتريت علي ، اكتبي ان المجلة حرقت وجهك وعنقك ، وان زوجك رجل مثالي كريم سمح ! »

وكتبت .. كتبت ما اراد ..

ولم لا اكتب ؟ وانا من انا ؟

وهل استأهل احسن من مارك ؟

وهل استحق رجلا خيرا منه ؟

www.elromancia.com

٦

عدنا الى سابق عهدنا نعيش تحت سقف واحد ونحتسي الخمر من زجاجة واحدة ، ويطلب هو المال وابذله انا مكرهة ويضربني ضربا موجعا .

وكنت اهرب من البيت ، وكان يلحق بي فيرجعني ليذيقني من صنوف التنكيل ما اعجز عن وصفه .

وكسر لي ذات ليلة ضلعا من ضلوعي وملأ وجهي جراحا ، فادخلت المستشفى لامضي فيه اسبوعين .

ولما شفيت وخرجت لاسعى الى طلاقي منه اصابني ويل عجيب ، فقد دهمني على حين غفلة وانهال علي ضربا . ثم لما حاولت ان استغيث بالهاتف ، انتزع المسماع من يدي وجعل يدق به ساعدي وراسي ووجهي حتى انبثق الدم من اعضائي جميعا . وانطلقت كالمجنونة الى طبيبي ثم الى المحامي . فلم يضيع الاثنان وقتهما سدى بل اسرعا معي الى النائب العام فاماطا له اللثام عن سري ، وكشفا له الحقيقة الرهيبة ، فامر رجاله ان يقبضوا فوراً على مارك .

فهل نجوت منه ؟ هل نجوت من شره ؟ كلا فقد خرج ثانية بالضمان وجاءني وهو يرغي ويزبد ، ولكني كنت قد اعددت للامور عدتها ، فجئت برجال ثلاثة من اصدقائي . وما كاد مارك يندفع داخلا حتى وقف مشدوها مذهولا وقد احاط به الرجال وفي عيونهم شر مستطير .

ولانت قناة نظرات مارك وجعل يتودد الي ، فابتسمت وقلت :

« اترغب في كأس ؟ »

قال : « هذا احب شيء على قلبي يا عزيزتي »

واحضرت له كأسي . ولما مد يده ليأخذها رشقته بها في وجهه ، فانقض علي ولكن الرجال الثلاثة شكموه وارغموه على الجلوس .

وقلت : « الم تستنزف الدم من وجهي يا مارت ؟ »

وضربته بالقدح الفارغ في وجهه حتى ادميته .

وقلت : « اما اوسعتني ضربا بالمسماع يا مارك ؟ »

وامسكت جهاز الهاتف وانهلت به على راسه ووجهه ضربا .

ولما حان ميعاد المحاكمة حاول مارك ان ينفي التهمة وان يصمني بالخبل والنفاق ، ولكن القاضي اخرسه زاجرا ثم قضى عليه بعقوبة السجن ، وحكم لي فورا بالطلاق منه لاني يوم اقترنت به كنت اجهل ماضيه الحافل بالجريمة .

●

كان الحول الذي قضيته مع مارك اشبه بحلم مريع اناخ فيه كابوس هائل على صدري . وقد تنبهت الان من ذلك الحلم ، وتساءلت اين انا ؟ وكيف يتسنى لي ان اجمع الحطام؟

ونقبت وبحثت ، فوجدت اني لا ازال املك رصيدا في البنك ، بضعة آلاف من الدولارات . ولكني استطيع ان اصل ما قطعته من الغناء . وحاولت وسعيت ، فلم اهتد الى المخرج الذي يرضى ان يسمع صوتي .

ماذا الان ؟ ان الحلم المزعج قد انقضى ومضى .. فماذا الان ؟

لم ابال باحد ، ومع ذلك لم يكن لي مندوحة من الاستمرار. كنت مريضة اشكو الوصب في كل دقيقة . وكان من المتعذر علي ان اواجه ضياء النهار دون نظارة سوداء .

وبالرغم من وجود مارك في غياهب السجن الا اني كنت اتخيله قادما منقضا في كل حين ، وكنت ارتعد فرقا وانا اراه بعين مخيلتي ملوحا بيده في الهواء وهاويا بقبضته على فمي وانفي .

ولم يبق لي من تعزية الا زجاجتي. كانت رفيقتي الوحيدة في نهاري وليلي . وكنت اناجيها واناغيها واتودد اليها ، كنت اقول :

« ايها الصديق الباسل ! يا قنينتي ! ما قيمة الناس ؟ ما قيمة الاصدقاء ؟ وهل من صديق لي غيرك ؟ »

ولكن لا ينبغي ان اتبطل ان شئت الحصول على ما اشتهي من الخمر . هكذا سعيت وظفرت بالعمل في انحاء مختلفة من البلاد .

ولما رجعت من رحلتي الواسعة بالمال الوفير ، ابرقت لامي ان تأتي الى كاليفورنيا لتعيش معي في مسكن واحد .

وقدمتني صديقة الى فيكتور . وكان شابا جذابا تملا الحياة اطافه . وكان قادرا على كل شيء ، حتى انه استطاع ان يسحكني ، وضحكي في تلك الايام المربدة كان عجيبة من الاعاجيب !

وقد طالما تامل في صامتا وانا احتسي الخمر ، ولم يعظني، بل انه كثيرا ما اعرب عن اعجابه ، ولو كنت في حالة مزرية من السكر !

وما اكثر ما اكد لي مطمئنا ان الزمان سيكفني عن تعاطي الراح ، وعلقت بالفتى ، ولعل موقفه النبيل ازاء تدهوري وانحطاطي كان السبب في اتجاه قلبي اليه .

واستدعت حالتي الصحية اجراء عملية جراحية خطرة في امعائي . ونجحت العملية باعجوبة لم يتوقع الطبيب حدوثها، فقد جاءني بعد بضعة ايام وجلس قريبا من فراشي وقال وهو يقبض علي يدي :

« سبق ان حذرتك من سوء العاقبة ان لم تنقطعي عن الشرب وهاانذا الان ابلغك صراحة انك موتا تموتين ان لم تبتعدي كليا عن الخمر » .

وفكرت في كلماته ، وقلت لنفسي وانا اغمض عيني :

« ولم لا اموت ؟ وماذا بقي لي في الحياة غير الخجل مما صنعت ؟ »

ولما الم بي فيكتور في اليوم التالي ، قلت له بكل هدوء :

« اي فيكتور ، لقد نصحني الطبيب ان اشرب شيئا من الخمر القوي فارجوك ان تاتي بزجاجة من الكونياك »

وكررت الحيلة مع كثيرين غير فيكتور . الى ان جاء الطبيب المداوي في احدى الليالي ليجدني ثملة وليجد اصدقائي يلعبون الورق في غرفتي .

واستعر نار غيظه ، فاستدعى الممرضة وامرها ان تقوم بالترتيبات اللازمة لحملي الى بيتي .

وهكذا تخلى عني طبيبي الخاص ، الكل يتخلون عني الا زجاجتي .. صديقتي .. حبيبتي .

وفي ليلة قمراء عببت فيها من الخمر كمية هائلة ، اقترنت بفيكتور . وفوجئت امي بالحدث الجديد ، فبكت ونظرت الي بعينين والهتين تسيلان الما وشجنا .

ولما قصدت حجرتها بعد ساعات الفيتها خالية ووجدت على السرير رقعة بيضاء كتبت لي امي فيها هذه الكلمات :

« تزوجت من جديد يا ليليان ، فانا ذاهبة الى نيويورك

لا مناص لي من الذهاب يا حبيبي لاني لا اقوى على مشاهدتك وانت تقتلين نفسك ! »

وخاضت اميركا غمرات الحرب بعد اعتداء اليابان على (بيرل هاربر) فذهب فيكتور الى ساحة الوغى وانطلقت انا الى نيويورك حيث شرعت من جديد امثل واغني ، وانتقل من نجاح الى نجاح — فهل هي انتعاشة ما قبل الموت ؟ هل هي صحوة ما قبل الغفلة ؟

ولغط الممثلون والمسؤولون ، واعزب الجميع لي عن استيائهم من اقبالي على المسكر ، فتذمرت واعترضت وطلبت اليهم ان لا يتدخلوا فيما لا يعنيهم ، فصمتوا ، ولكنني بلغت بعد يوم واحد اني لن امثل على المسرح .

واكتريت لي غرفة صغيرة في نيويورك ، وعشت مغمورة متهورة وحيدة ، بلا امل ، وبلا رجاء ، وبلا اصدقاء .. غير زجاجتي ..!

٧

قلت بصوت واضح النبرة غاضب :

« انني انذرك . انا واثقة من انك تذيع فكري . فاكفف والا ..! »

وتساءل الصوت المذهول على الجانب الاخر من الخط التلفوني فقال :

« من المتكلمة ؟ من ؟ »

وكنت قد اتصلت بمحطة الراديو اللاسلكي الموجودة على سطح فندقنا .

واجبت : « انت تعلم من يكلمك ، ويجدر بك ان تنقطع عما احدث به نفسك ! »

لقد شعرت منذ اليوم الاول الذي جئت فيه الى شلالات ساجارا ان كل ما مسسته بيدي كان يرتعش رعشة التيار الكهربائي . ولما افضيت لفيكتور بهواجسي رد علي ضاحكا :

« لا تكوني بلهاء يا عزيزتي ، فالاهتزازة هذه تنجم عن قوة سقوط المياه . »

فلم اقتنع ، وكنا قد وردنا هذه المنطقة على اثر صدور الامر باعفائه من الجيش قبل بضعة ايام .

www.elromancia.com

وقد عمل فيكتور كبائع متجول بماهية مقدارها سبعون دولارا في الاسبوع . وكنا في امس الحاجة الى هذا المبلغ الزهيد ، فقد خسرت جميع ما املك ، ولم اعد اقتني الا عقدا واحدا للتامين على الحياة .

وكنت اقضي سحابة نهاري في التجول في تلك المنطقة الساحرة مع كلب كبير جاء به فيكتور من المانيا .

وما مضت ايام قلائل حتى استحوذ علي الوسواس وصور لي الوهم اني مكهربة ، فافضيت لفيكتور بهذا السر . قلت له ان جواسيس الاعداء يظنون اني ملمة باسرار الدفاع ، ولهذا فقد اقاموا الاجهزة السرية في مكان اقامتنا حتى يطلعوا على الخفايا والخبايا ! »

وصاح بي فيكتور وهو بين غاضب وساخر : « هذا هراء من القول يا عزيزتي ، انت تهرفين بما لا يتجاوز الخيال . ومرضك وهم اسفر عنه ادمانك » .

ولم اقنع بكلمات زوجي ، بل تضاعف الهاجس المخيف واصبحت اخشى المرآة ، وارهب النظر اليها ، فقد يكون الجواسيس وضعوا فيها ما ينتزع السر او الروح ! وجفاني الكرى وكنت اتقلب مهتاجة منفعلة ، وكنت اقول لفيكتور دون ان آبه لاعتراضه : « ان الفراش مكهرب !! انني اموت ! »

واخيرا اتفقنا على مغادرة شلالات نياجرا الى لوس انجلوس . بيد اننا كنا نفتقر الى المال لندفع منه حساب الفندق والطعام والشراب .

وارسلت برقية الى امي ، فجاءني في اليوم الثاني حوالة بستمئة دولار . ولما استلمت المال ذرفت الدمع ، فهذه الدولارات هي ولا شك ثمن المجوهرات التي اهديتها لها في يوم مضى .

ونزلنا في لوس انجلوس في مسكن اخت لفيكتور ، وتمكن

فيكتور من الحصول على عمل متواضع . وجعلت انا اقضي سحابة نهاري كل يوم في غرفتي ارتشف المسكر على دفعات رتيبة مستمرة .

وحصلت على نسخة من الانجيل فاخذت اقرا فيه .

ولكني صدمت بعد ايام بصوت شقيقة فيكتور وهي تخاطب زوجها وتقول : « يجب ان تذهب هذه المراة ، يجب ان تذهب اليوم . انني اريد ذلك واخي فيكتور يريده ايضا » .

ووضعت بعض الثياب في حقيبة صغيرة وغادرت المنزل وانا لا اعرف لي مقرا آخر . ومشيت على غير هدى في الشوارع ، وكنت واثقة من انني لن اظفر بغرفة في فندق ، فجميع الفنادق تغص بمن نزل فيها بسبب الحرب المشتعلة الاوار في اوروبا .

على اني لم اجد مناصا من القيام بمحاولة ، فطرقت الابواب ورددت خائبة . حتى اذا قصدت فندقا حقيرا وسألت صاحبه عن مأوى . رحب بي الرجل واستقبلني هاشا ثم قادني الى حجرة ضيقة بالية الاثاث والفراش .

وقبل ان يستولي علي السبات قرات في الانجيل المقدس عن السيد المسيح وعن تواضعه ، وتسامحه . ونظرت فيما يكتنفني ، ثم ابتسمت راضية مقتنعة . . فانا لا افضله — انا لا اتقدم على السيد المسيح . . لقد بشر بالتواضع ، وبشر بالتسامح ، وقال للناس جميعا : احبوا بعضكم بعضا .

ورنقت ذكاء في صباح اليوم التالي ، وفتحت عيني على ضوء النهار . فشعرت بالنشاط وبالحيوية وبالقناعة .

وفكرت . . اني وحيدة في هذه الحياة ، بيد ان الله سيأخذ بيدي . وشخصت وانا مستلقية الى السقف ، ثم التفت الى النافذة ، واهتزت بغتة الستر القديمة ، وبدا لي من خلالهما انسان يتوسط رجلين — وكان هذا الانسان السيد المسيح متلفعا بالبياض . اما الاخران فلم اتبين ملامحهما .

ودنا مني الانسان مادا يده الى الامام ، وبرقة لم اعهدها في غيره من الناس مسح على راسي بتلك اليد الرحيمة ـ السيد المسيح باركني في هذا الفندق الحقير . واستسلمت للنوم .

وتنبهت على جرس الهاتف يرن بشدة والحاح . فتناولت المسماع واصغيت :

وقال قائل : « انا فيكتور ، لقد اخطات في حقك فاصفحي عني . انا لك وانت لي وسنتفق على ما يلائمنا نحن الاثنين »

وهمي الدمع عيني ورضيت ، والفيت نفسي بعد ساعتين اعني بشقة صغيرة اتخذنا منها انا وزوجي فيكتور منزلا لنا .

ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد يئس فيكتور مني ومن تعلقي بالمسكر . ولما راى أن من المحال اصلاح الحال غادرني ولم يعد .

وصفرت من المال فقصدت المكان الذي يعمل فيه فيكتور وتوسلت اليه ان يعطيني بعض النقود . ولكنه ابى وهددني بأن يبلغ عني رجال الامن ان لم اذهب عنه .

وبعد ايام طلقت من فيكتور ، واخذت اهيم في احياء المدينة وانا ثملة مخمورة مجنونة . وسمعت امي بما لحقني من ضيم ، وكانت لا تملك من المال ما تستطيع ان تعينني به .

وبثت شكاتها الى صديقة مخلصة فاعطتها المراة مبلغا كبيرا من المال ، وجاءت الي هذه الانسانة التي اذقتها من طيشي ما لم تذقه ام من قبل وما لن تذوقه ام من بعد .

ولما وقع طرفها على وجهي وكف دمعها فدفنت محياها بين يديها وصاحت بصوت يلين الجماد : « اواه يا بنيتي .. يا طفلتي .. »

وتعانقنا ، وامتزجت عبراتنا ، واتصل قلبانا ـ اتصل

قلبان لم يمس صلتهما المقدسة اي مطمع او مارب .

ورجعنا الى نيويورك وعشنا معا في غرفة دفعت امي ايجارها من مرتبها الزهيد .

واعطتني النقود باستمرار ، كانت تعرف اني ابددها في الحصول على الخمر ، ولكنها لم تبخل علي بها . كانت تحرم نفسها من كل درهم لكي اشرب بكل درهم تلك الخمرة الملعونة التي جرت مجرى الدم في عروقي .

ليليان روث .. المضيئة الساطعة المتالقة ..

ليليان روث .. الحسناء التي ازرى جمالها بنور البدر ..

ليليان روث .. من هي الان ؟ وما هي ؟.

لا شيء .. صفر .. نكرة ..

سكيرة .. فقدت الشرف والعزة ..

وجنت من عبثها كل شقاء وحسرة ..

القسم الثاني

١

هلم .. هلمي يا ليليان نتكلم ... ليتكلم القلب مع الفكر.. ناجي نفسك .. حاسبيها ...

ولنعترف ... انت مدمنة ميئوس منها .. وليس من السهل ان يصبح المرء سكيرا ميئوسا منه ، فهذا يتطلب جهدا ووقتا ، وقد نجحت انت ، فغدوت ذلك المرء الميئوس منه !

رب قائل نبهك الى اسرافك في تعاطي الخمر ، فكنت تبتسمين هازئة ، وكنت تستيقظين في الصباح وانت على خير ما يرام ..

بدأت بقدح ، ثم باثنين ، ثم بثلاثة .. وزاد عدد الكؤوس حتى اصبحت تشربين في ساعة الصبح ، وهل كان يدين لك التوفيق لو امتنعت عن احتساء كاس مترعة في ساعة الصبح؟.

واستفحل الامر فاصبحت تشربين في كل ساعة من النهار ، ثم في كل ساعة من الليل ، حتى انقلبت الى سكيرة صاحية ، اي مدمنة لا تسكر بوعيها ، بل بجسدها واحساسها !

ومضت الاعوام وحصل شيء مريع ، وتعاركت قوتان

خفيتان في داخلك ، وصاح جزء منك: « اريد الخمر ! » وصاح الجزء الآخر : « لا استطيع ! »

لقد تمرد جسدك ولم يعد في وسعك الاستمرار . وحسوت الخمر ، وامسيت عليلة مسقومة ، وامست امعاؤك مريضة لا تقوى على الصبر ، بل تطلب المخدر الملعون وتلحف في الطلب ، والا ، فالويل لك ، ولجسدك ، ولشعورك !

وكانت المرحلة الثانية اسوا .. فالاهتزاز الجسدي لازمك والتوتر العصبي لم يفارقك ، وابى جهازك ان يذعن .. وصرت تنامين ولا تنامين ! صرت تشربين ، ثم تنامين ، ثم تشربين ، ثم تقذفين ما في امعائك ، ثم تشربين !.. شرب .. شرب .. شرب ..

وتألمت في راسك ، وعينيك ، وانفك ، وحلقك ، وصدرك ، ومعدتك ، وساقيك ...

وما قوي شيء على ملاشاة الالم سوى الخمر .. ولكن جسدك طفق يرفض الخمر ..

وانتابتك الالام الهائلة ، ورايت اشياء لا تمت الى الحقيقة. وشرعت تذرعين غرفتك طيلة ساعات الليل ، وتشدين شعرك ، وتمزقين ملابسك ، وتصرخين .. اجل تصرخين مستنجدة ، مستغيثة .!

وما دواؤك الا سمك .. ما دواؤك الا هذا السائل السام الذي طفقت معدتك ترفضه وتابى أن تهضمه .

ونهايتك يا ليليان هي الجنون ، الجنون المطبق ، والموت في عارك وشنارك !

وقالت لي صديقة فيما بعد :

« جاءت بك امك الى بيتي في كانون الاول ١٩٤٥ .. ولما دخلت بك شدهت مما رايت ، فما شاهدت قط انسانا

في مثل حالتك المزرية . لقد ظهرت بمظهر بعيد عن الانسانية . . ظهرت كحيوان ساطه صاحبه حتى ادماه . .

« ظهرت كسيرة ، حسيرة ، مقهورة ، خائفة حتى الموت . . وكان شعرك اشبه بمقشة خشنة ، وجسدك مكتنزا الا ان ذراعيك كانتا معروقتين ناضبتين . وبكيت انا ، وذرفت الدمع السخين شفقة وحزنا . »

« وقد تساءلت امك والهة عما يخلق بها عمله ، فنصحتها بالاناة وطلبت اليها ان تمكث في منزلي اثناء تغيبي خارج المدينة ».

هذا ما قالته الصديقة . ومكثنا في منزلها وشربت . لم يكن لي غنى عن الشرب . وكنت احيى الليل ساهرة لا يغمض لي جفن . وكانت امي تبقى معي حتى يسبحها النعاس فترتمي مستضعفة على الاريكة .

وتذكرت الدكتور النفساني بريل ، فقلت: « يجب ان اراه جب ان استنجد به ، فلعله قادر على مساعدتي في محنتي »

وذهبت اليه ، فاستقبلني بلطف ، ونمت عيناه عن طيبته وتفهمه .

ونفضت له ما اثقل كاهلي وفتحت مصاريع قلبي ، ولكني لم اهضل بكلام كثير ، بل قلت ونفسي اللاغبة تسيل الما :

« انني اتعذب يا سيدي ، اقاسي الامرين . .

« انني مدنفة لا املك من امري شيئا . . انني ارى ما لا يراه سواي من الناس . . واسمع ما لا يسمعون . . وعندما امشي اظن اني اقع في فضاء ، وان الابنية تتحطم وتتهاوى على راسي ، وان الجسور تهوي هويه في الماء متى سرت فوقها . . ولا آكل ، ولا اتنفس ، ولا ابصر ، واختنق ، واتقيأ ، وتتقلص يداي ، وتنكمش اسناني فاعض على نواذجي . . اني اذوب خجلا ، انني اسقط . . اسقط . . ولا رجاء لي . . ولا امل . »

وانهرت على المقعد وانا انتحب . .

●

وتكلم الدكتور بريل بهدوء ، وقام الي فربت كتفي المهتز . ثم اجرى علي فحصه . وما عتم ان خلا بامي واخبرها باني تحطمت ذهنيا وجثمانيا ، وما لم ادخل المستشفى فلن اعيش اكثر من شهور لا تتجاوز الثلاثة عددا .

وسالته امي عن جدوى دخولي المستشفى ، فلم يبين لها الحقيقة واضحة جلية ، بل اخبرها ان خضوعي للعناية والعلاج ينقذني من النهاية المحتومة .

واطلعني الدكتور بريل على ما باح به لامي . فهتفت وانا ارتعش حزنا : « افعلوا بي ما تشاءون ، انقذوني ، ادراوا عني خطر الموت ، خففوا عذابي ! »

ودخلت المستشفى ، واكتشفت في نفس اليوم الذي اغلق بابه علي اني اعيش مع رهط من المجنونات !

ولاول مرة في حياتي جثوت على ركبتي وابتهلت الى الله قائلة : « اللهم اشكر لك عطفك ! لقد حبوتني في هذا المكان بفرصة ذهبية انجو فيها من محنتي ! »

ونهضت فجلست على سريري في غرفة خصصت لي ، وكانت هذه الغرفة ضيقة عارية من كل ما اعتدت عليه من البذخ والترف .

ونظرت فيما حولي فلم اجد من زينتي شيئا ، فقد نزعت مني الممرضة قبل ولوج الغرفة كل شيء يخشى ان استعمله في احداث الضرر بي او بسواي .

وجاءني بعد لحظات ثلاثة رجال عرفت فيهم اطباء المستشفى الكبير ، وابتدرني احد الثلاثة يقول بعد ان جلسوا :

« لقد وقعت يا آنسة أوراقا عديدة اليوم قبل دخولك المستشفى ، وهذا يضعك تحت اشرافنا ومراقبتنا التامتين . والان ارغب في توجيه بعض الاسئلة اليك فاستمعي واجيبي »

وشرع الطبيب يلقي علي اسئلته وجعلت انا اجيبه على كل سؤال متوخية الصدق قدر الامكان .

وغادرني الاطباء الثلاثة بعد ساعة ، ففكرت فيما وصلت اليه حالي ، فذابت نفسي وتلاشت ثقتي ، ورايتني اندفع خارجة من غرفتي فأسير في دهليز لا نهاية له يتوسط صفين طويلين من الغرف المشابهة لغرفتي . وعجبت من خلو المكان، فانا لم يقع طرفي على عليلة واحدة في هذه الغرف العديدة .

وواجهتني فجاة مكتبة تغص بالكتب ، فدلفت اليها ومددت يدي لآخذ كتابا واذا بي اشعر بشيء يضغط على عنقي حتى ليكاد يزهق انفاسي .. وصحت بصوت متحشرج :

« اماه ، اواه ! اين انت ؟ »

وارجعني الى نفسي صوت خافت ، فالتفت لاواجه شابا جميل الوجه مهندما . وما كاد الشاب يلقي علي نظره السريع حتى قال مبتسما :

« كيف تشعرين اليوم يا آنسة ؟ انا طبيبك النفساني فلا تراعي بل اخبريني ، هل يخالجك الاضطراب ؟ »

فعجلت اقول : « كلا ولكنني قلقة لا اجد تاويلا لما حصل لي اليوم » .

قال : « انني ارغب في اجراء بعض الفحوص الاختبارية عليك ، فهل تأذنين ؟ »

ودون ان ينتظر جوابي امرني ان اجلس . ثم شرع يطلب الي ان آتي بحركات معينة ، حتى خيل الي اننا اصبحنا من فصيلة القردة . ولما اخبرته بذلك وقلت بأني راقصة ومغنية فقط ، ضحك ملء فيه وقال وهو يربت يدي : « انني كثير

التفاؤل ، واخال ان مصيرك الى شفاء مضمون ان احتفظت بروح عالية تحب الفكاهة وتؤثر النادرة »

وجاءت ممرضة فقادتني الى نهاية الدهليز حيث ولجنا معا قاعة كبيرة متسعة جلس فيها زهاء خمسين امراة . وكن جميعا يرتدين الملابس الحسنة وكأنهن مدعوات الى وليمة في قصر !

ونسيت نفسي للمحة وجيزة ، وهتفت بأعلى صوتي :

« اهلا بكن يا صديقات ! »

وحملقت النسوة الي بعيون زائغة . ولبثت كل منهن تعيش منعزلة في دنيا فكرها . وتهالكت في كرسي كبير بجانب فتاة في شرخ الشباب منهمكة في حديث طويل مع شخص لم يكن موجودا !

وتأملت في الفتاة ، واتضحت لي الحقيقة . انهن من المجانين ! فلم زج بي بينهن يا ترى ؟

ولهثت ورجف قلبي وكأنه يوشك ان يقفز الى حلقي .وقلت لنفسي وانا ارتعش من قمة راسي الى اخمص قدمي : « يا الهي ! انني انهار فقوني ، امنحني العزم والصبر ، حتى لا اصبح كهؤلاء النسوة ! »

وقرع جرس . وانتصبت النساء واقفات في حركة واحدة. وسرعان ما اصطففن وراء بعضهن البعض ؛ وشرعن يتسللن بترتيب ونظام من القاعة . ودنت مني ممرضة وقالت : « اتبعيهن يا آنسة روث ، اذهبي معهن فقد حان وقت الطعام » .

وتبعتهن وجلست في المكان المعين لي . وحاولت ان آكل فغثت نفسي . وجاءت ممرضة وجعلت تلقمني ، ولكني نحيتها عني وانا لا ابصر الا اشياء تهتز وتدور حولي وفوقي وتحتي. وملت الى الامام وارتمت يداي الى جنبي ، وغشي علي .

وحملوني الى حجرتي وانا ارتجف واغرق بعرقي .
وانتابتني الالام المريعة ، وان جسدي طالبا الخمر . ووددت لو ظفرت بسكين ماضية اغيبها في احشائي واسكت بها قلبي الى الابد .

لم ابل من قبل مثل هذا العذاب . فخارج المستشفى كنت دائما مطمئنة الى الحصول على الخمر التي تهدىء اعصابي وتزيل عذابي .

وقضيت اسوا ليلة في حياتي وجاء الصبح اخيرا فقرت اشجاني بعض الشيء وخفت الامي .

وسمح لي في اليوم الثالث ان ارتدي ملابسي ولكنهم لم يعطوني حليي واوائل زينتي .

ثلاثة ايام لم اذق اثناءها طعم الخمر . ست عشرة سنة خلت لم يمض علي ابانها يوم دون ان احتسي الخمر ، بل لم يمض ساعة من غير ان احن اليها واتذوقها. وها انا اليوم ـ بعد ستة عشر عاما ـ اقضي خمسين ساعة او اكثر دون ان اريقها في فمي !

واستفقت من هجعة يسيرة في هزيع متاخر من الليل ، او على الاصح حلمت اني استفقت وغادرت فراشي متلصلصة الى مخزن الاطعمة ، فسرقت زجاجة من الخمر ، وخرجت بها الى الحديقة . وفجاة انقض علي الاطباء بوجوه كالحة مربدة وحملوني الى الداخل حيث اوسعوني ضربا . ثم غطسوا جسدي في ماء ساخن وبارد ، وبعد ذلك قيدوني بقيود المجانين !

وعادني الطبيب في اليوم الخامس وقال وهو يبتسم ابتسامة عريضة مشجعة :

« ابشري يا ليليان ، لقد اصدرت الامر بنقلك من هذا الجناح الى قسم الناقهات » .

فقلت : « اتعني اني لن اقضي هنا سنة طويلة ؟ »

قال : « لا تتفاءلي كثيرا ، بل روضي نفسك على المعيشة بيننا وكانك تمكثين ابد الدهر ! »

وانتقلت الى الغرفة الجديدة ، حيث وجدت ملابسي ، واوائل زينتي ، وحليي .

ومضت الاسابيع تترى وراء بعضها البعض ، وتعددت مقابلاتي مع الطبيب المداوي ، وتكشف له كثير من نواحي حياتي ، راى كل شيء حتى اصبح ماضي صفحة مفتوحة تلقاء ناظريه .

فعلم ان علاقتي مع الرجال شابها في كل حين ما عكرها وقلب صفاءها كدرا .

وعلم ان موت دافيد كان بمثابة الصدمة الاولى التي صدعت البنيان . وعلم ان سعيي في كل حين للظهور بغير حقيقتي قد جر علي اسوا النتائج ، وان مركب النقص قد اصبح صفة ملازمة لي على اثر ذلك . وعلم ان معاملتي الخشنة لامي اسهمت هي الاخرى في القضاء علي ..

وخاطبني وهو يستمع الى حديثي عن ماضي : « لقد خفت من الدنيا، ولهذا تحديت الدنيا .. وتزوجت ، وكان زواجك دائما مصحوبا بالامل الضائع في ان يحميك زوجك. ولكنك كنت تختارين الرجل غير الجدير بك ! »

ولا شك ان الطبيب البارع اصاب في تحليله ، فما تزوجت (ولي) الا املا في نسيان دافيد . ولم يمثل ولي الحب والوجد ، بل المرح ، والمجون ، وخفة الروح ، وطيبة القلب .. بيد ان زواجنا باء بالفشل .. واقترنت بعده بالقاضي شاليك ، لكن مكانته في المجتمع لم تنلني وطري من السعادة.

وانثنيت الى مارك وانا اظن ان الشدة والقسوة شيئان لهما سحرهما ، ولكنه اثبت لي انه فسل وضيع ، ولص محتال، ومجرم لا يتورع عن اقتراف القتل .

ولم افكر قط في الزواج بفيكتور . ومع ذلك تزوجته وكانت النهاية المخجلة لعلاقتنا ، وكان الطلاق ايضا .

واستنتج الطبيب من ذلك ان انهياري الاخير كان بسبب افتقاري الى حب انسان صادق لا يطمع في مال او جاه ، واني بأمي كنت متشككة ، امي بحبها وعطفها .. ولا جرم انه اصاب في استنتاجه . فقد قفرت حياتي من العاطفة المتدفقة، فما صادفني رجل مخلص غير دافيد ، وما انجبت ابنا اشغل به نفسي عن الدنيا . وكان المال معولا من معاول الهدم ، وكان العبث مسمارا من مسامير نعشي !

وتطور احساسي، وتنوعت ميولي .. فتعلقت مرة بالبرتقال وعصيره ، ثم بالاجاص ، ثم بغيرهما من الفواكه.. وعاودتني مشاعر اليأس ، وودت لو مت ..

وقرات مرة في مجلة سمح لي بقراءتها ، عن امراة اصيبت بالادمان وانتحرت ولم تمت ! ولما رجعت اليها صحتها ، عملت في جمعية مكافحة الادمان — وكان اسمها (السيدة مارتن مان) — واسدت النصائح الغالية لكل انسان مني بالادمان .

ولما اطلعت الطبيب على ما قرات قال : « انت مريضة يا ليليان بعقلك وجسمك ولن نعنى كثيرا بناحية الادمان فيك بل اننا عابئون اليوم بتوفير الصحة والقوة لك ، وبارشادك الى الطريقة المثلى التي تستطيعين ان تعيشي بها وتهنأي »

وتوالت زيارات امي ، وكنت اراها مقبلة من بعيد وهي تلهث تعبا . وكنت ابكي حزنا واسفا كلما شاهدتها آتية بملابسها القديمة وحذائها البالي . ومع ذلك كنت اتمنى لو وثبت عليها وهي ذاهبة لاصرخ في وجهها :

« سحقا لك يا امراة ! انت السبب ، انت السبب في وجودي هنا ! »

وقد جابهتها بهذه الكلمات في احدى المرات ، فحملقت بعينيها غير مصدقة وهي تغالب مدامعها .

ولما غادرتني ، اهرعت الى الطبيب ، فاطلعته على ما جرى ، وانا استعبر متأثرة متلوعة .

وسمح لي بعد ذلك ان اغادر المستشفى بين الوقت والاخر لساعة من الزمن اقضيها في اي مكان اشاء ، وقد صحبتني امي مرة الى مقهى صغير ، فجلسنا الى مائدة منفردة وطلبنا مشروبا ساخنا .

ولفتت نظري على مائدة مجاورة زجاجة نبيذ حمراء ، اخذت ثلاث نساء يعاقرن محتوياتها ، فسال لعابي ، وكدت لولا قليل اختنق ... وشعرت بطعم النبيذ في حلقي . وزاغت عيناي وودت لو انتزعت الزجاجة عنوة منهن .. بيد اني قويت على ضعفي ، فلم افعل ما راودتني نفسي عليه ، وخرجت مسرعة تتبعني امي الملمة بباطن امري .

٢

تحسنت حالي ولا غرو ، واذن لي الطبيب ان اقصد نيويورك وحدي ، وهو لا جرم تعمد مثل هذه الخطوة لكي يعجم عودي ، ويسبر قوة ارادتي .

ومشيت في شوارع نيويورك اتمتع بالدفء وبشمس نيسان الساطعة . واستدرت في عطفه ، فاذا بي وجها لوجه مع حانة صغيرة وكأني التقي الشيطان الرجيم بغتة . اشحت وجهي بسرعة ، وتابعت المشي حتى ابتعدت عن الحانة وخمرتها .

ولكن نيويورك مدينة الدنيا وفيها من الحانات ما لا حصر له . وكنت في كل خطوة اخطوها ارى زجاجة ، او لافتة تدعو المارة الى الدخول . وكذلك كنت ارى رجالا يشربون ، فاندفع بسرعة وكأني اهرب من خطر ماحق .

وحدثت نفسي وانا في مثل هذه البلبلة : « ماذا يجري لو تناولت كاسا ؟ وهل تضيرني كاس واحدة ؟ »

واجتزت التجربة بنجاح ووصلت منزل امي فاستقبلتني بحنانها وقبلاتها . وقضيت معها ساعتين حرصت اثناءها على معاملتها بالحسنى .. ورجعت ادراجي الى المستشفى دون ان اذوق طعم الراح .

واخذت ، والقطار ينهب الارض بي نهبا ، استعيد الى

الذاكرة اقوال الانجيل والتوراة ، ثم فكرت بأمي وقلت : «لعل الله عندما صنع الام ، صنع في قلبها درعا واقية . وفي حبها اجنحة لوليدها . الم تكلأني امي برعايتها ، الم ترضعني من ذات نفسها حنانا ومحبة ؟ »

وحلقت في اجواء الماضي ، ورايتني صغيرة احبو ، ورايتني طفلة اعيش مع والدي في بوسطن ، وشعرت بقبلاتهما الحارة .. وتريث القطار ثم توقف ، وعدت الى الحقيقة فترجلت وقصدت المستشفى .

والفيت في انتظاري طبيبي النفساني ، فلما شاهدني مقبلة هرول نحوي فتفرس في ثم قال مبتسما ، « الا تفكرين في العودة الى عملك ، الى التمثيل والغناء ؟ »

فاجبت قائلة: «وما حاجة الناس الى مشاهدة راقصة مدمنة والى سماع صوتها المرتعش ؟ »

وحدجني بنظرة مؤنبة وقال : «يجدر بك ان لا تبخسي حق نفسك، لقد انقطعت عن الشرب منذ خمسة اشهر اليس كذلك؟»

فقلت : « اجل لم احتس الخمر لخمسة شهور خلون ، ولكن .. »

فقاطعني : « وهل سبق ان شعرت بالغيرة من ممثلة اخرى ؟ »

وصدمني السؤال ، وكان رمية من غير رام . لقد اصاب كبد الحقيقة فانا احسد زميلة لي ، كنت احسدها دون ان اشعر باني اغار منها ، اما الان فقد اتضحت لي الحقيقة .. فما اكثر ما انتابني مضض شديد من وجودها وبزوغ نجمها . وقلت وانا اطرق مفكرة : « انني شاهدتها مرارا وهي تغني اغنية — ايها الخاطئون — وتعجبت لها كيف كانت تتقن النغم وتصعد باللحن وتنخفض وكانها وتر طيع . كنت اميل اليها ولكنها يوم مثلت دوري واجادت وبذتني ، شعرت كما يشعر انسان غيب نصل في قلبه »

وصمت قليلا ورفعت الى الطبيب عينين مخضلتين . ولكنه ابتسم مشجعا وهز لي راسه وكانه يحثني على المضي في سردي ..

واستانفت : «واتذكر صيف ١٩٣٥ عندما اقترنت بالقاضي. فقد اختبرتني شركة بارامونت في فحص تجريبي اعدته لاختيار ممثلاتها لقصة رصدت لها المبالغ الطائلة ، وكانت هذه فرصتي الذهبية ، ولكن الممثلة التي كنت احسدها برزت فجاة الى الميدان ، واخذت الدور الذي كان معينا لي .. فنا لا مشاحة شعرت بالغيرة ، وان لم اعترف بها . وتبع ذلك نفوري من التمثيل والغناء وموافقتي على الزواج بكل من تقدم في طلب يدي . »

فقال الطبيب : « فانت تعترفين اذن بغيرتك ؟ »

قلت : « اجل وكلا .. بيد اني عندما شاهدت نجاحها . رايت ما دسته بقدمي . وكلما كنت انظر الى اعلى ، وكلما كنت اشرئب من بؤرة ادماتي ، وكنت ارى خيالي مجسما في هذه الممثلة الناجحة » .

فتساءل الطبيب قائلا . «وهل تظنين انك فقدت المؤهلات ؟ هل تظنين انك لست اهلا لتبوء المكانة التي خلقت لها ؟ »

قلت : « نعم ، فالناس لن تنسى عيبي وعاري » .

قال : « هذا سخف من القول يا ليليان ، واوصيك ان تقابلي الفنانين والموسيقيين لاستئناف التمرين على الغناء لدى ذهابك الى نيويورك » .

وعملت بنصيحة الطبيب ، فاتخذت مع امي الاجراءات اللازمة ، وجعلت في كل اسبوع اتدرب لاتمرس بالاغنية الجديدة التي وضعت لي .

وحان اليوم الذي قيل لي فيه اني حرة في الذهاب الى حيث شئت .

وقبل ان اغادر المستشفى خلوت بالطبيب . فنبهني بلطفه المعهود الى وجوب شغل اوقاتي كلها بالعمل المستمر . ثم قال :

« اعلمي ان الاشهر التي تنتظرك خارج هذا المستشفى هي اصعب عليك من الاشهر التي قضيتها معنا . انت هنا تعيشين خاضعة لقانوننا ومراقبتنا ، اما في الخارج فانت حرة طليقة لا سلطة لاحد عليك .. انت في الخارج تعيشين مع الضجة والارتباك والاضطراب ، وتتعرضين لكل انفعال ياتيك من هذا ومن ذاك ، ومن افعال هذا ، ومن افعال ذاك . وسوف تحني الى المسكر ، ستشاهدين الناس يجرعون الخمر عن كثب منك وستراودك نفسك على استئناف ما قطعته من لذتك القاتلة .. اعدي نفسك يا ليليان لكل منتظر من المكاره ولا يغرب عن بالك ان المسكر لك هو الموت المحقق .. ارفعي راسك عاليا ، وكوني عزيزة كريمة ، ولا تسقطي »

واغرورقت عيناي بدموع الشكر والعرفان ، وصافحت الرجل الطيب ، ومضيت في سبيلي لاصبح حرة مرة ثانية .

●

خرجت من المستشفى عام ١٩٤٦ ، وانتظرت اياما في خوف وتوجس ولكني استعدت هدوئي عندما مرت تلك الايام دون ان تتناول الجرائد قصتي بالبحث ، ودون ان تاخذ من مأساتي مادة طلية تروج فيها اعدادها .

وارسلت كتابا الى القاضي شاليك ارجو منه ان يقابلني ، وقد رد علي بكلمة مقتضبة عين لي فيها مكانا لاجتماعنا .

واجتمعت اليه في المكان الموعود . ولما راى ملابسي قال ضاحكا :

« ايتها الفلاحة .. ان ملابسك توحي الى المشاهد بانك قضيت العمر في الحقل »

وتضاحكت ثم طرقت الموضوع الذي جئت من اجله فرجوته والعرق البارد يتفصد من جبيني ان يعطيني خمسة وعشرين دولارا في كل اسبوع ريثما اتدبر امري .

وقطب زوجي السابق جبينه حينما وعى ما اريد . وكانه نسي تلك الالاف المؤلفة التي اعطيته اياها فيما مضى . ولكنه ما لبث ان وضع امامي خمسة وعشرين دولار وقال وهو يتاهب للذهاب :

« خذي هذا المقدار وسانظر في طلبك »

وشرعت بعد ذلك اسعى وراء العمل ، فطرقت ابواب المخرجين حتى ظفرت بوعد صريح من احدهم .

ولكن الصحف في اليوم التالي كتبت تصف حالتي وشخصيتي وتقول بالحرف العريض :

« نجم هوى منذ سنة يرجع الان ليغني وهو ثمل !. »

ثم شرحت هذه الصحف بلهجة لاذعة متهكمة قصتي منذ فجرها .

وما كدت اطالع تلك المقالات الضافية واقرا كلمات العار التي وصمت بها نفسي بسكري ، حتى غامت عيناي ، وطاشت سهامي ، وتقلص املي وانكمش وزال في مثل ومضة برق .

لقد فضحت ، عرفت الان بالسكيرة العربيدة بعد ان عرفت فيما مضى بالفنانة العبقرية !

ورجعت ادراجي الى البيت وانا محطمة القلب مهيضة الجناح وابتعت في الطريق زجاجة خمر عببت منها لدى وصولي الى المنزل كاسا واحدة وجعلت احدق اليها ، ثم رفعتها الى فمي وابتلعت نصفها ، وكانت هذه اول مرة اشرب فيها منذ ستة اشهر او يزيد ..

وتدفق المسكر دافئا في حلقي .. تدفق دافئا دفء الحياة . وتسرب الى جوفي واحشائي فاكسبني انتعاشا .. ولم اتالم .. بل شعرت بلذة طاغية ممتعة حبيبة .

وهانذا اتخلى عن وحدتي واسترجع رفيقي وانيسي ووثبت واقفة وقد ازدهاني الطرب الحبور ، وجعلت الوح بيدي وارقص واغني .. هذا رائع ، مدهش .. لقد شفيت من وصبي واني الآن اشرب دون ان اتعذب !

واصابتني على حين غرة قشعريرة مخيفة — لقد خوت الزجاجة ، فماذا افعل ؟ هل اجن كما كنت اجن عندما تقفر غرفتي من الخمر ، هل يستولي علي الرعب القاتل بعد زوال مفعول الخمر في نفسي ؟

وبصورة مخيفة هرولت نازلة وابتعت زجاجة ثانية . واحييت الليل وانا اجرع جرعات صغيرة ممزوجة بالماء حتى لا تنتهي الزجاجة وينتهي بذلك املي واطمئناني .

ولكني ادركت انني خدعت نفسي الخدعة الكبرى .

ادركت انني اختبلت عقلي وذهني وضميري .

ادركت اني اندفعت الان في طريق النهاية .

واني ساسقط السقطة المروعة في الجرف الهاري الفاغر فاه .

●

واستفقت في الصباح مذعورة مبهورة . انني في حاجة الى الراحة ، ان قلبي واحساسي وجسدي تلح جميعها في طلب الخمر . انني فاشلة .. فاشلة .. ولن اتوب ولن انقطع عن الخمر .

وفكرت بغتة باسي فاتصلت بها واخبرتها اني قادمة اليها . وحسوت قبل ذهابي اربعة كؤوس كبيرة من الويسكي . وما وصلت محطة القطار حتى كنت قد اتيت على نصف زجاجة اخرى .

ووقفت هناك اتامل في القاطرات المتحركة المنسابة في سرعة ورشاقة ، وسولت لي النفس الخائرة ان انطرح تحت العجلات .. ولكني لم افعل ، ولعلي كنت خائفة شأن كل مدمن .. وركبت القطار لخيرا ولحظت ان المسافرين كانوا يشيحون بوجوههم عني كلما اشتموا رائحة فمي ، وكلما راوا احمرار عيني .

وطاطأت راسي من الخجل . ولكن راسي كان يميل يمينا وشمالا ، فقد ارتفعت اليه سورة الويسكي !

وانتهيت الى منزل امي اخيرا ، وناداني صوت : « ليليان .. ليليان .. » وتطلعت الى اعلى السلم ، ورايتها ترمقني بعين تجلى فيها الفزع واليأس . وما لبثت ان هتفت ملتاعة :

« اواه ! رباه ! »

وسحت دمعة سخينة من عينيها ، وتدحرجت على خدها المتغضن ، فكانت ابلغ دليل على نذالتي .

وفي منتصف تلك الليلة انتبهت من نومي وانا اشعر بالاختناق . ونهضت واخذت ابحث عن الخمر . وعثرت اخيرا على بضع زجاجات من البيرة ، فشربتها في دقائق . ثم انتظرت على احر من الجمر . حتى اذا ولى الليل واشرقت الشمس ، خرجت مسرعة ، فابتعت حاجتي ورجعت ادراجي .

ولزمت غرفتي طوال ذلك الاسبوع . وكانت امي تاتي الي احيانا وهي تحاول ان تخفي ما هيج حزنها . وكانت تتضرع الي ان اكل شيئا . ولكني كنت اردها خائبة ، فانا لا اكل بل اشرب دون انقطاع !

ولما رايت ما حاق بأمي من شقاء بالغ ، قفلت راجعة الى نيويورك بعد ان اخذت منها عشرين دولارا . وما كدت اصل المدينة الكبيرة ، وقبل ان ادخل شقة صديقتي الغائبة ، ابتعت بالنقود خمرة .. ولم امكر في القوت ولا في شيء يسد الرمق!

ولم افعل ذلك دون اعمال الفكر ، بل تعمدت شراء الخمر حتى تكون في نهايتها نهايتي ! لقد عزمت على فصم هذه الحلقة التعيسة — حياتي

قررت ان اغرق عقلي بالنشوة ، ثم ارتكب جريمة القتل لانجو واريح امي والناس !

وستكتب الصحف :

« وحيدة .. نجم لامع .. ضحية .. »

ونضوت عني ملابسي واشتملت بمنامتي وعباءتي ، واسدلت الستائر حتى ابقى في ظلام . وجلست وانا ابتسم مسرورة . واخرجت وثائقي كلها — دفتر الشيكات ، وان لم يبق لي حساب ! بوالص التامين على الحياة ، وان الغيتها لكثرة ما اقترضت من الشركات ! رسومي في شتى الاوضاع ! رسائلي وجميع ما تبقى من الاوراق بعد ذهاب اكثرها على اثر ما قام به مارك من احراقها في ساعة جنون !

ورميت هذه الذكريات والاثار والايام والسنين الى الارض ، وصحت باعلى صوتي :

« هذه حياتي انا التاعسة المجنونة ! »

وجلست على الارض وسط الاوراق المبعثرة ومعي قنينة وقدح ، وطفقت انظر في حياة ليليان روث

ما كنته ، وما انا الان ... والرجال الذين عشقوني

ما انا ؟ ومن انا ؟ ومن هم ؟ واين هم ؟ هم .. هم .. الذين استولوا على جسدي ، واخضعوا روحي ، وداسوا كرامتي .. وانتزعوا امني وطمانينتي !

وشربت وانا اقول : « هذا نخب عشاقي ! »

وشاب كأسي طعم الملوحة .. هل ابكي .؟ ادمعي امتزج براحي ؟

ابكي يا ليليان ، اذرفي الدمع ، اسفحيه ، ففيه تفريج للكرب !

وقضيت ساعات النهار وانا اشرب . ولم تدخل الخمرة النشوة المطلوبة الى قلبي ، وابتلعت قرصا منوما فعل فعله السريع في أقل من ربع ساعة . ولما افقت كانت الدنيا متسربلة بظلام الليل . فاسرعت الى خمرتي اعاقرها . شربت الويسكي والكونياك والجن .. وغبت قليلا عن صوابي وزارني طيف دافيد !

وغاب الطيف ثم رجع .. ولكنه رجع محمولا — رجع ميتا !

وفتح فاه وقال بصوت عميق — بصوت ميت .. قال دافيد:

«انت حقيرة يا ليليان ! ادخلوك المستشفى قسرا، وعالجوك سنة شهور ، وشفيت ، وخرجت صحيحة قوية ، ولكنك استانفت عادتك القبيحة ! انت لا شيء يا ليليان ! »

وارتعش جسدي ، وحانت مني التفاتة الى الحائط ، فقف شعر راسي وصحت :

« اواه ، يا الله ! نجني .. اعني .. »

لقد عادت عيناي تريان الاباطيل والخدع .. رات عيناي عنكبا هائلا يفترش الحائط !

وتلاشى العنكب ، واحتل مكانه وجوه ثلاثة — وجوه غير آدمية ، وجوه مريعة ، بشعور منتصبة ، واسنان مدببة ، ولحى مشعثة ، واعين تبرق كاللهب !

ودنت مني الوجوه .. دنت .. دنت .. وصرخت صوتا هائلا ، وقفزت واقفة ، واهرعت الى غرفة الحمام وقلبي يخفق خفقات متقطعة .

وزال المس ، واستدرت لاخرج ، الا ان الوجوه لاحت بغتة ، فانثنيت مرتاعة ، واندفعت الى مخدع النوم وانطرحت تحت السرير !

يا لتعسي البق — البق يزحف علي كالجيش ! وجعلت احك جسدي بجنون

اهي جيوش البق ، كلا ، انها العناكب .. العناكب الجرارة ، ملايين العناكب ! كلها كانت تهجم علي !

وصارعتها ، وضربت جسدي ، اوسعته ضربا . ثم خرجت من مخبأي ، ولكنها لم تتركني .. كانت كارجال الجراد في كثرتها تزحف في بقعة من الارض !

وشربت الخمر ، فانهزمت العناكب

كنت وحيدة ، كنت نقطة من قبس خفاق يبتعد بسرعة هائلة الى مسافات شاسعة ، ويضؤل ، يضؤل ، ليمسي لا شيء — ليمسي خفقة في ذلك السكون الرهيب !

لقد تلاشت الاصوات كلها خلا صوت جرس يدق من بعيد بلحن شجي .

رباه ، اين انت ؟ ساعدني .. ماذا افعل ؟

وانتظرت فلم تبدر من الدنيا بادرة ، ولم يجبني احد ، ولم تسع الي ملائكة السماء .. فاين هي ؟ اين الملائكة ؟

هل اجد ملائكة السماء في الشارع ؟ هل القي بنفسي من شاهق لكي اجدهم ؟

واستانفت الشرب فعاد الي الهدوء . وطفقت افكر : هل اتصل بأمي ، هل اقذف بنفسي من النافذة ؟ هل اكلم الطبيب النفساني ؟

واتصلت بالمستشفى ، وكلمت الطبيب واستنجدت به . رجوته ان يأتي .

فقال : « اصبري يا ليليان ، اننا في يوم احد . ابتلعي من اقراص النوم ما يجعلك تنامين ، وساقدم في يوم الثلاثاء ! »

وصرخت منفعلة : « وستجدني جثة هامدة ! »

وما لبثت ان انطلقت خارجة ومشيت .. مشيت الى الامام .. الى الامام ..

٣

الفيت نفسي بعد ساعة واقفة امام مركز مكافحة الادمان . وترددت بين الاقدام والاحجام ، واخيرا ولجت المكتب ، فوقع طرفي على رجل مكتنز اللحم ، مبسوط الوجه ، يضع على راسه غطاء المرضين .

وصاح الرجل بصوت قريب الى القلب : « اهلا بك ، ماذا استطيع ان افعل من اجلك ؟ »

فقلت : « لي صديقة ضيع رشدها المسكر حتى اوشكت ان تقذف بنفسها من النافذة ! »

فقال : « وي ! وي ! » . ووقف ، ثم استطرد :

« لا تقلقي ، ولنبادر الى اتخاذ الاجراءات . ولكن ما بالنا لا نعالج الامور من اولها ، فانت مثلا .. انت .. ما بالك ؟ ارى في وجهك علائم الاضطراب والارتباك ! »

فشعرت بالمهانة وقلت : « انا ؟ اواه ! كلا ، كلا ! »

قال : « لا تراعي ، اهداي . اخبريني ما اسمك »

وترددت ثم اجبت : « الستم تتوخون السرية في عملكم ؟ »

قال : « لست مرغما ان تعطيني اسمك ، نحن جميعا في هذا المكان اصدقاء ! »

قلت : « اسمي ليليان روث » .

قال : « لنصعد الى الرفاق ونشرب القهوة »

ونسينا — وكاننا كنا على اتفاق — ان صديقتي المزعومة هي المدمنة . وساعدني هو على الصعود ، ووصلنا بعد لحظة الى قاعة فسيحة يجلس فيها عدد من الاشخاص ، وهم مقبلون على قهوتهم المرة . وكانوا يتبادلون الحديث ، بينما راح بعضهم يلعب الورق .

وسالت رفيقي وانا اجذبه من يده : « ما هذا المكان ؟ ومن هؤلاء الناس ؟ »

قال « انهم من المدمنين . ولكنهم مدمنون اقلعوا عن المسكر بعون الله ، وستصبحين مثلهم سعيدة هانئة شاكرة لله »

وقادني الرجل الى مائدة ، فجلست شاردة ، وتلفت حولي ، فاذا حولي وجوه حنونة رحيمة تتطلع في اخوة طاهرة .

وطفا شيء غامض في داخلي .. واحسست باني بضعة من هذه الجماعة . ووثقت ، وجعلت اتكلم ، ارقت في وعاء الالم قصة امراة دنفها السقم . حدثتهم بتاريخ حياتي كلها من اولها الى آخرها ، وختمت حديثي بقولي :

« واردت يا اصدقائي ان اختتم مسلسل عذابي بالانتحار ، ولكن شيئا خفيا عاقني ، شيئا سدد خطاي اليكم . »

وقال وجه من الوجوه — اجل ، وجه نطق قائلا :

« انا ايضا اوشكت ان اسعى الى حتفي ! »

وجاءوني بفنجان من القهوة

ومضت الساعات وانا اتكلم وهم ينصتون . وشعرت بالحاجة الى كاس .. بدا جسدي يطلب الخمر ، فانتصبت واقفة .

ودنا مني رجلان ، وخاطبني احدهما :

« الى اين تذهبين ؟ »
فأجبت : « الى المنزل ، وشكرا ! »
وقال الرجل الاخر : « سنرافقك الى منزلك ! »
فأجبت : « آه ! كلا ، استطيع ان اذهب وحدي »

قال : « سيارتي في الخارج ، وهناك سيدة تقطن في منزل قريب من منزلك ، ويسرها ان تصحبنا »

ووافقت على مضض . ونزلنا ، فوجدت امراة بدينة تنتظرنا قرب الباب . وكان وجهها مستديرا بشوشا .

وقال احد الرجلين : « انها جوليا ، وانا جون وهذا لاري »
وانطلقت بنا السيارة . وقال جون :
« ان جوليا تعمل مساعدة لبيليفيو ! »
فقلت في تساؤل خائف : « بيليفيو ؟ »
قال : « اجل ، هي المشرفة ! »

●

المشرفة ! لقد خدعوني . هم ياخذونني الان الى مستشفى المدمنين او المخبولين . غير ان فزعي تلاشى عندما وقفت السيارة امام منزل صديقتي . ولما هممت بتحيتهم ومفارقتهم ، قال جون مبتسما :

« اتسمحين لنا بقضاء ساعة معك ؟ »
يا الله ! الا يعلم اني اطلب الخلوة ؟ ولكن ، هل يليق بي ارفض ؟ وصعدنا .

ومضى الوقت ، واخذت عضلاتي تتوتر . وتصبب العرق من ظهري ، واحتقن الدم في انفي ، واصابني لهاث !

وقال جون : « انت في حاجة الى كاس او مستشفى ، فهل تملكين المال ؟ »
فهززت راسي نفيا .

واردف : « المستشفى يتطلب بعض النفقات ، فهل انت على اهبة الخضوع للبرنامج ؟ »

فقلت : « اجل ، اجل ، اجل ، اريد كل مساعدة ، فما هو البرنامج ؟ »

قال « سنصل اليه . اما الان فهل عندك خمر ؟ »
قلت : « عندي زجاجة واحدة » .
قال : « سنعد لك يد المساعدة هنا ما دمت غير قادرة على دخول المستشفى ، ولنبدأ الان باعطائك الكاس »

فاختلج فؤادي بالرضا والامل ، انهم اشخاص يفكرون بعقل ، ويعملون بروية .

وذهبت معه الى المطبخ ، وملأت لي كاسا من الزجاجة الاخيرة ، وجرعتها بسرعة . ولما تدفقت الخمرة في جوفي رجع الي بعض هدوئي ، واصبحت قادرة على الابتلاع والتنفس .

وعندما رجعنا الى القاعة قالت جوليا :
« يجب ان اغادرك الان يا عزيزتي . ولكني سارسل لك سيدة تمكث معك »

وذهبت جوليا وبقي جون ولاري .
وطفق الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث ، وكان حديثهما عن الادمان وعذابه . وخيل الي انهما لن ينتهيا ، فكدت انشق من الغيظ ، واموت من شدة ما كابدت .

ولكني لم اجرؤ على اعتراضهما ، فقد يكونان طبيبين نفسانيين ، قد يكونونان منصرفين الى دراسة حالتي ليقررا ان كنت مجنونة او عاقلة .

وقرع الباب ، ودخل رجل وامراة . وهكذا اصبحوا اربعة ، فاوشكت ان افقد عقلي .
ومضت الساعات وانا اتقلب على جمر واخيرا هب جون واقفا وقال :

« الساعة تقارب الثالثة صباحا ، فهلموا ! »

ولما غادروا المكان اندفعت الى المطبخ . ولكني وقفت في وسطه جامدة مبهوتة . ولم اجسر على مد يدي الى الزجاجة خيفة ان تصيبني ازمة بعد ساعة فلا اجد ما يقيني الجنون

وعدت الى مخدع النوم واضطجعت . وما كدت انعل حتى تتابعت الاحداث ، وتعالى اللغط وارتفع الطنين .

وازدادت الاصوات اختلاطا وهياجا ، واخذت جميعها تقول بنفس واحد :

« سيهجمون عليك .. سياخذونك .. سيعرفون .. »

وتراءى لي وجه جوليا ، ثم تحلل هذا الوجه وذاب في وجوه اخرى عديدة ، ثم تضاءل الى نقطة تدور على بعضها بسرعة ، ثم استطالت النقطة بشكل مفزع الى وجه اخر .

وغرقت في سبات مضطرب ، استيقظت منه في الساعة الثامنة والنصف على صوت الهاتف يقرع بالحاح .

وتكلم جون فقال : « اسعدت صباحا ، هل عانيت كثيرا ! هل آتي اليك ؟ »

وجاء جون بعد دقائق ، دخل وهو يضحك ويقول :

« انا اليوم طوع امرك ! »

فقلت متعجبة متحسبة : « طوع امري ؟! »

قال : « اجل ، وسالازمك واخرج معك الى الهواء الطلق فنزور امكنة كثيرة »

ونزلنا ، فاخذني الى مقهى صغير ، وطلب عصير الليمون ورجاني ان اشربه في جرعات صغيرة .

ثم خرجنا واخذنا نمشي . وكنت اتعثر بخطاي . وكان هو يعينني ويقول : « ستجتازين المحنة يا ليليان ، ستنتصرين ، سيساعدك الله ! »

وطفقت ابكي ، فكفكف عبراتي ، وقادني الى دار السينما فاندفعت الى دورة المياه وعببت الماء ونفحت وجهي به . ولا ادري كيف قضيت الساعتين في دار السينما .

ولما خرجنا رجوته ان يسمح لي بكاس ، فاجاب :

« بعد نصف ساعة تنالين اربك ! »

وانقضى نصف الساعة ، ولم انل كاسي . فانشات اقول منتحبة : « انت تنكل بي ! »

فاجاب ببرود « بعد عشرين دقيقة ، فاصبري »

على انه لم يبر بوعده ، ووجدت نفسي ادخل معه الى مركز مكافحة الادمان ، واجلس مكرهة ، واتناول فنجان القهوة .

واحاط بي رهط من المدمنين التائبين وشرعوا يتكلمون ويتساءلون ويستوضحون .

وهكذا مضى اليوم التالي . وفي المساء صحبتني جوليا الى البيت ، وقضت الليل بلا نوم .

وما حانت الساعة التاسعة من صباح اليوم الثالث ، حتى كنت مع رفاقي ، وفي المساء اخذني جون الى اجتماع كبير عقده التائبون في مكان بعيد .

في ذلك المكان نهض رجل ناحل مديد القامة ، وشرع يتكلم بصوت عميق له وقع وتاثير ، قال :

« اننا من ثلاثة انواع — مدمن نجا نهائيا ، ومدمن اقلع منذ وقت قصير ، ومدمن يتقصد جسده الان بالعرق ، ويجلس على يديه ، ويعض على نواجذه حذر الجنون .. واني اخاطب الان هؤلاء ، واطلب اليهم ان يجيلوا النظر في الوجوه المحيطة بهم ، ويوطنوا النفس على الاقتداء بمن سبقهم ليغنموا الحياة والهناء ! »

ولما اوصلني جون الى مسكني ، اعطاني كراسة صغيرة

وقال : « في هذه الاوراق تفسير للخطوات التي يحقق بها المدمن الشفاء ، فاقرئيها متمعنة متأملة » .

وحياني جون ومضى في سبيله . اما جوليا فانها لازمتني واخذت تساعدني على قراءة ما في الكراسة . وهذا ما جاء فيها بعبارة التأنيث :

الخطوات الموفقة التي تحملك الى شاطىء الامان .
اولا : اعترفي بانك ضعيفة زعزعت الخمرة ايمانك .
ثانيا : اعتقدي بقوة تبذ قوتك .
ثالثا : فوضي امرك الى الله كما تفهمينه .
رابعا : دوني ملخصا عن سلوكك
خامسا : اعترفي بطبيعة اخطائك

سادسا : اعدي نفسك لتقبل جميع ما يقضي به خالقك لازالة اوضارك وشوائبك .

سابعا : اكتبي كشفا باسماء جميع الاشخاص الذين آذيت كي تزيلي اذيتك عنهم عندما يأزف الوقت المناسب .

ثامنا : احتفظي بدفتر يوميات . دوني فيه كل شيء ، كل صغيرة وكبيرة .

تاسعا : ارقي بالصلاة والتأمل بضميرك واتصالك بالله كما تفهمينه سبحانه وتعالى .

عاشرا : انقلي الرسالة السامية الى سواك ممن ادمن ولتكن هذه المبادىء نبراسا تستضيئين بنوره .

●

عشت بنفسي وجسدي وقلبي وعقلي مع مركز مكافحة الادمان .

وما كانت امي لتصدق اني قضيت مع هذه الجماعة الهادية الراشدة اكثر من ستة اسابيع ، لولا ذهابها معي الى احد

الاجتماعات . ومع ذلك فما فارقتها ريبتها ، بل كانت تتأملني في شك وقلق .

وحدست ما كان يدور في عقلها من هواجس ، فاقسمت لها اني لم اذق طعم الخمر منذ اتصالي بهم . وقد انبسطت اساريرها ساعة اصغت لكلماتي ، وقالت :

« استمري يا ليليان ، استمري ... وليبارك الله هؤلاء الناس الاوفياء الذين يؤدون اعمال الخير . »

وطفقت تتردد علي كل اسبوع ، وتصحبني الى الاجتماعات وفي احد الايام ، وبينما كنت اجلس في احدى غرف المركز رايت شابا وسيما يجلس وحده ويرشف قهوته ببطء . واخذت اختلس اليه النظر ، ولم يلبث هو ان نهض ودنا من مائدتي وهو يعرج وقال :

« راقبتك منذ دخولك . بل اني تتبعتك منذ اليوم الاول ، ولكني لم احظ بفرصة اكلمك فيها »

وقدم لي نفسه باسم بيرت ، وجلس .
وتساجلنا الحديث ، وسألني ان كنت ارغب في مرافقته الى احدى دور السينما . فازدهاني انشراح عجيب واجبت : « يسعدني ذلك ، سارافقك ! »

ولكنه عندما مر ليلا ليصحبني ، اعتذرت وانا حزينة مقهورة وقلت :
« اواه يا صديقي ما اتعسني ! »
وضحك الشاب ملء فيه ، وامسكني من ذراعي وقادني الى الخارج ، ثم الى دار السينما .

ولما جلسنا جنبا لجنب ، تأملت في وجهه ، وسخرت من نفسي — ماذا يحدوني على مرافقة شاب في اول العمر ؟

وعرجنا بعد ذلك على مطعم صغير تناولنا فيه طعام العشاء . ثم شيعني الى البيت وقال وهو يغادرني : « اي

ليليان ، تذكري انك بعد اليوم لن تخرجي الى المدينة وحدك »
وتلهفت الى مقدمه في اليوم التالي ، فلما جاء ، صافحني بحرارة وشوق ، وسالني عن حالي ، ثم قال :

« لقد فكرت طويلا بك ، ورايت ان انصحك بمزاولة ما قطعته من الغناء والتمثيل »
فاجبته في انفعال : « ارجوك ، لا تذكر المستحيل ! »

وخرجنا الى المركز ، فقضينا فيه ساعات طويلة ، ولما قفلنا راجعين كان معنا عشرة من اخواننا المدمنين التائبين ، وعندما ذهبوا في الثالثة صباحا قال بيرت :

« اي ليليان ، دعيني امد لك يد المساعدة »
فاجبت محتدمة متاججة : « اهذا هو سبب وجودك ؟ »
واغضى عن معنى كلماتي وقال بلطف :

« اني اميل اليك لانك امراة رصينة نبيلة ، ولست اشك في انك قادرة على ان تكوني في طليعة النساء ، ولهذا احذرك من اقراص النوم ، لانك ان واصلت تعاطيها فلن تلبثي ان تستانفي احتساء الخمر ! »

فاجبت مذعورة : « ماذا افعل ؟ وكيف انقطع عن هذه العادة ؟ واين لعيني النوم دون الاقراص ؟ »

قال : « ان شئت قضيت الليل معك »
ولما نظرت الى وجهه مشككة مرتابة استطى وهو يخفض عينيه :
« واعدك بان لا ازعجك او اقاضيك اجرا ! »

ولم يغادر بيرت بيتي في تلك الليلة ولا في الليالي الكثيرة التي تلتها . وكان يمنعني من ابتلاع الاقراص ، كان يكافح من اجلي .. وقد نجح في مسعاه .

وفي آب ذهب ليقضي شهرا مع عائلته في ساوث هامبتون . ولكنه قبل ان يغادرني حثني على زيارة صديق له يدير مسرحا

كبيرا . وفعلت ذلك ولما اختبر الرجل صوتي الحقني بالعمل لاسبوع واحد لقاء مئة دولار .

وذهبت في الليلة الاولى الى ملعبه . ولما علوت خشبة المسرح اصابني فزع عظيم .

كان المكان يضيق بمن فيه ، وكانت العيون شاخصة الي .. وغنيت اخيرا ، وتعالى الهتاف ودوى التصفيق . وايقنت والحزن يمزق قلبي ان الرجال هتفوا من قبيل الشفقة ، وان النساء حثهن على الهتاف والتصفيق زوال جمالي .

ولما اخذت المئة دولار في نهاية الاسبوع ارسلت نصفها الى امي ، وانفقت النصف الاخر على المدمنين التائبين .

ثم ظفرت بعد ايام بعقد لاسبوع اخر في صالة شهيرة مقابل خمسمئة دولار .

وغنيت في تلك الصالة ، ولكن رائحة الخمر فغمت انفي وملأت صدري .

ومدد العقد . بيد اني كنت اموت خمسين ميتة كل ليلة . كنت اشعر بصدري يضيق ، وبقلبي يخفق بعنف . وكان جون يراقبني دائما وهو على اتم اهبة للحيلولة بيني وبين الخمر .

وعاد بيرت ، فلما عرف بما اصابني ، اخذ يصحبني الى الاماكن التي لا خمر فيها .

وعن لي مرة خاطر مفاجيء ، فسالته عن مكان اقامته . فتردد هنيهة ثم اخبرني انه يقيم في فندق بنسلفانيا . ولما سالت عنه بعد ايام في الفندق ، لم يعرفه احد !

وعجبت وداخلني شك . فهرولت الى جون استوضحه الامر ، فقال : « ان بيرت اشرف رجل يا ليليان . وهو فقير حبس اهله المال عنه امعانا في اذلاله ! »

وتبدلت نظرتي الى بيرت .. لقد اخبرني جون كل شيء عن حياته ، فهو ابن رجل كبير في جاهه ونفوذه .

وقد اصيب بيرت وهو صغير بشلل الاطفال . ومضت السنون وهو يكافح ويجاهد حتى تمكن من استرداد القدرة على الحركة . ولكن هذا ملأ قلبه اسى فاقبل على الخمر ، وما زال يتعاطاه حتى اصبح مدمنا .

وكان قد تطوع في الجيش كسائق لسيارات الجنود ، فذهب الى افريقيا واسيا . وكان يشرب ولا يكف عن الشرب ، ولما قفل راجعا الى الوطن كافح كفاح الابطال ضد المسكر ، وهو وما زال يتعاطاها حتى اصبح مدمنا .

وشعرت بالحب نحوه ، وتحدثنا ذات ليلة ، وفتحنا لبعضنا البعض قلوبنا ، فباح لي بشعوره ، واطلعني على حبه .

ما انبل هذا الخلق ! ما اروع هذه المشاعر ! انه يحبني حقا ، ويمحضني الاخلاص .

لا يعرف انسان كيف احببت بيرت ميت الامل في قلبي ، وكيف بعثني من جديد قوية صابرة نشيطة !

وجعل بيرت يقدمني الى رجال العمل المسرحي . وصحبني مرة الى صالون للتجميل ، حيث قاموا على تحسين منظري . وما لبث ان اقترض المال وابتاع لي الملابس اللائقة .

وفي اواخر عام ١٩٤٦ تمكن بيرت من ابرام عقد كبير مع مسرح شهير . فأخذت اغني فيه ، واخذ صوتي يجذب المعجبين ، واخذت ثقتي تعود وسعادتي تزهر .

والح علي بيرت ان نعقد الزواج ، فترددت ، وناشدته ان يؤجل الامر ، ولكنه اصر اصرارا شديدا ، فوافقت !

وعقد القران ، وكان الشاهدان تائبين من المدمنين اخواننا !

٤

غدا بيرت زوجي ومدير اعمالي . ولم يكن من السهل علي بعد احتجابي الطويل ان اظفر باوطاري في كل حين .

بيد ان اصحاب الدور الكبيرة خافوا من الارتباط معي بعقود طويلة الاجل . وزاد الطين بلة تجدد الحملة الصحافية علي . وقد وصفتني الصحف « بالمراة التي تمجد سكرها » .

وجاءني وانا اوشك على الانهيار عرض من مدينة ملبورن من استراليا .

وتولاني خوف هائل عندما رايت الحجرة التي وضع فيها سريري وامتعتي ، فقد غصت باكثر من ثلاثين سريرا لثلاثين امراة . وكانت ليلتي الاولى اشق على نفسي من الليلة الاولى التي قضيتها في المستشفى ، فاني رقدت في فراش ضيق يعلوه فراش ، فطفقت اتململ واتقلب . وكانت غرفة المحركات قريبة ، وقد ملأت اصوات الاتها سمعي .

وانكمش فمي ، واطبقت اسناني على بعضها البعض . وتفصد العرق البارد من جبيني . ورجعت الي جميع اعراض المدمن ، كما استحوذ علي ذلك الخبل الذي الم بي وانا ابحث عن جرعة خمر !

وشرعت المحركات الهازئة تغني ، كانت تقول :
« الليلة الهادئة ... الليلة الهادئة ... »
وكانت تردد هاتين الكلمتين باستمرار ، وبنغم واحد !
واقبل علي بيرت في الصباح بكلامه الذي يحمل السلام

والثقة . قال : « لا تيأسي يا حبيبتي . مشفاؤنا يستغرق وقتا طويلا ، ولكي ننقي عقولنا نهائيا من تفكير المدمن ، يجب ان نجاهد جهاد الابطال » .

وخفف عني وقر همي في ذلك اليوم اجتماع بيننا وبين القس وليم جيمس العائد الى مسقط راسه في ملبورن . فقد اطلعناه على الحقيقة برمتها ، وبينا له ما تقوم به جماعتنا من مساعدة المصابين بداء الادمان .

واظهر الرجل اهتمامه الشديد بحديثنا ، ثم اخبرنا عن صديق له يدعى جاك نكب بهذا الداء ، ورجانا ان نعنى به لدى وصولنا . فوعدناه ببذل ما في طاقتنا لانقاذ صديقه .

ولما وصلنا انغمسنا كارهين في حياة المجتمع . وكانت الخمرة هي المشروب الوحيد الذي يقبل عليه الناس في كل مكان . وما اكثر ما كنا نعاون قوما تحلو لهم المشاكسة فيتعمدون الاكثار من الشرب .

وجاءني بعد ايام صديق القس ، فاستقبلته مرحبة في غرفة زينتي في احد فنادق ملبورن ودعوته للجلوس .

وجلس الرجل الحزين . كان يتلفع باطمار ، وكان حذاؤه مثقوبا .. وتذكرت حالتي ، فطأطأت راسي لاخفي دمعة محرقة انبجست من عيني .

كان يرتعش ويرتعد ، وكانه ريشة في مهب الريح ، ولكنه تغلب على وهنه فتكلم ، قال :

« ارسلني القس اليك ، وهو يزعم ان في وسعك مساعدتي . وانتشالي من بؤرتي ! »

ودخل بيرت ، فنظرت اليه متسائلة .. وفهم بيرت ما اريد ، فغاب قليلا ، ورجع وهو يحمل زجاجة لم ادر سبب وجودها عنده . وصب له كاسا فجرعها المسكين ، ونظر الينا بامتنان ، ثم تنهد بارتياح ، وارخى يديه .

وتحدثنا معه مليا ثم صرفناه بعد ان اعطيناه دولارا . وذهب الرجل في سبيله ، واشترى ما تيسر له من الخمر .

وجاء في اليوم التالي مع رفيق له ، ولعله اخبره عن اميركي واميركية يفعلان الخير ، ويقدمان الكاس والدولار

وعالجنا الامور بحكمة ، فانتحيت بجاك جانبا وهامسته قائلة : « اسمع يا جاك ، انت الان الرجل الاقوى ، فخذ هذا الدولار واستعن به على قوتك ، وراقبه ، لا تدعه يشرب ! »

وفعل بيرت بالرجل الاخر مثلما فعلت انا بجاك !

وعاد الرجلان بعد اربع ساعات دون ان يتذوقا الخمر

ولازمناهما بعد ذلك ، كنت اقضي وقتا طويلا معهما وكان بيرت ياتي فيومىء الي ان اذهب . ويمكث معهما بعد ذهابي يحدثهما ويقدم لهما القهوة .

وجاء مدمن ثالث ، وتبعه رابع وخامس وسادس . والفنا خلية . وجعلنا نجتمع في الفندق وفي المسرح .

وشعرت بالسعادة ، وشاركني بيرت شعوري هذا . لقد انهمكنا في عمل الخير ، والخير افضل ما يستطيع الانسان عمله ! الخير كلمة الله ، الخير ايمان ومحبة !

وتعرفت الى رجل من رجال الدين ، له في المدينة ، بل في البلاد كلها ، مكانة ومنزلة . وقد هناني على موقفي ، وطلب الى ان اخصص له ساعة اتكلم فيها امام الناس ، واذيع على الملايين قصة الادمان والجهود التي نبذلها لمساعدة المنكوبين .

وتحدثت الى الناس ، قلت لهم ان هناك خمسة ملايين مدمن في الولايات المتحدة ، يموت منهم الاف عديدة كل عام . ثم وصفت جهود مركز مكافحة الادمان .

وكانت النتائج مدهشة ، فقد غرقنا في سيل عرمرم من البرقيات والرسائل . كما ان عشرات من المدمنين طرقوا

بابنا ، ومئات من الامهات والزوجات أبتهلن الينا ان نفعل شيئا من اجل رجالهن .

وتراكمت علينا الواجبات حتى أضنتنا ، وكنا نستقبل الناس في الليل والنهار . لقد آليا أن ننقذ من نستطيع انقاذه .. آليا أن نرد الجميل مضاعفا للانسانية التي اسدت الينا اعظم خدمة .

واخيرا اضطررت الى التخلي عن عملي في المسرح للتفرغ لعملي في مضمار الادمان .

وحفز هذا السعي كثيرين من رجال الدين والدنيا الى المساهمة في مكافحة الادمان ، وهكذا تكاتف الجميع في سبيل غاية واحدة ، واجتمعوا في صعيد واحد ليتفقوا على الخطوات والاساليب الناجعة .

وجاء في احدى الليالي شاب عظيم الهامة ، ضخم الجسم، منبسط الصدر ، وقال بعد أن حياني بايماءة :

« انا صحافي ، وارغب في التحدث اليك على انفراد »

ولما صعدت معه الى غرفتي ، طرح علي عددا كبيرا من الاسئلة عن الادمان ومكافحته ، ثم ودعني ومضى

ووردتني في اليوم التالي رسالة مستعجلة . فلما فضضتها علمت ان صاحبنا الصحافي غير صحافي ، فقد قال :

« انا لست صحافيا ، انا صاحب جريدة ، وانا اشقى شقي ! انا مدمن فكرت الف مرة في الانتحار قبل ان القاك . ولا أرغب الان الا في ان تصفحي عني لاني خدعتك . »

فطلبت الى بيرت أن يتصل بالرجل ويطلب اليه القدوم . وجاء الرجل دون ابطاء . ولما جلس واستراح قليلا ، قال وهو يضغط راسه من شدة الالم :

« انا ضائع .. ضائع لا ابغي الا خلاص روحي .. لا اجسر على التطلع الى الله .. بلى لا اجسر على النظر الى السماء!

ولقد اجرمت في حق الانسانية والسماء .. وكيف ؟ اتدرين كيف ؟ كنت طيارا اقذف بقنابل الموت .. امرت ذات يوم ان اقذف مدرسة بوابل من هذه القنابل فصدعت . ولكني حينما رايت الاطفال تتطاير اشلاؤهم في الفضاء ، تفتحت بصيرتي ، وجحظ بصري ، وعلمت وانا اصرخ كالمجنون اني احط مخلوق ! »

وبكى الرجل بكاء مرا . وقلت له وانا اذوب لوعة :

« نحن احيانا مسيرون يا صديقي ، نعمل بارادة مشلولة. فلا تبتئس ، واعلم أن في السماء مجالا لكل رحمة وغفران

وقضينا الليل ونحن نتحدث دون ان يذوق طعم الخمر . ومرت علينا ايام كثيرة ، تغير فيها الرجل ، واصبح يسير بخطى واسعة نحو الشفاء .

كان من اكثر المدمنين شجاعة ، فهو بعد ايام ، جعل يساعدنا على معالجة سواه من المدمنين ، ولم يلبث طويلا حتى تراس خلية لمكافحة الادمان .

٥

رجعنا الى اميركا اخيرا فاستقبلتني امي بالبكاء والضحك . كانت اسعد امراة في الدنيا ، ولكني لم اشعر بالسعادة عندما رايتها ، فقد لاح عليها الكبر والضعف . وعلمت بعد ايام انها تشكو من مرض عضال لا برء منه !

وجاءت ساعة رهيبة امتحنت فيها بايماني .. جاءت ساعة من تلك الساعات التي يتداعى فيها المرء كما يتداعى صرح شامخ .. جاءت ساعة اشبه بتلك التي تميد فيها الارض تحت الاقدام ! اجل جاءت تلك الساعة ، ونعيت امي !

امي .. امي تموت ؟!
اواه !
واسرعت الى حجرتها ، فرايتها مسجاة في فراشها ، وهي تبتسم ...

اميتة هي ؟

كلا ... كلا ... انها نائمة تحلم بطفلتها ليليان !

وجاءتني الخادمة بكأس من الكونياك ، ورجتني ان اجرع ما فيها لان الصدمة تستوجب استعارة القوة من الكحول !

والتفت الى امي ، وخيل الي انها تقول :

« لا .. لا تشربي يا ليليان .. انا ميتة ، ولكني مت قريرة العين لاقلاعك عن الخمر ، فلا تبئسي روحي ودعيني اثوي في مقري الاخير بسلام وطمانينة .

وهتفت روحي : « لبيك يا اماه .. لبيك .. لن اعذب روحك الطاهرة ، فارقدي بسلام ! »

●

احببت ثلاث مرات قبل التقاء بيرت — احببت دافيد ومن قبله ابي وامي .

والان ، لمن افضي بما يعن لي ؟ وبمن افكر بعد امي التي طالما سقيتها كأس العذاب ؟

وذرفت الدموع — رباه ، لم لم تفسح في اجلها حتى اسدي اليها بعض ما اسدت الي ؟ لم لم تدعني اجلب اليها الهناء بعد العناء ؟

وظن بيرت ان التغيير يفيدني ، فالح علي بالانتقال الى فندق صغير في نيويورك ، ولكني لزمت حالة الحزن التي ترديت فيها بعد موت امي .

الا اني في احدى الليالي وكنت مستقلية على سريري وانا ابكي امي صامتة ، تذكرت بغتة ما كانت ترده على مسمعي كلما وقعت . وكلما آذاني طفل من لداتي ، وكلما حل بي الضرر بعد ان شببت عن الطوق

كانت تقول لي في تلك الساعات :
« ليليان . يا طفلتي .. لا تبكي الليلة . بل غدا ... »
وكنت ابذل وسعي للتجلد والتصبر ، وكنت ارد عليها فاقول :
« ليكن ذلك يا امي . سابكي غدا ! »
وكانت تعقب قائلة : « وستتبدل الامور غدا يا ليليان .. كل شيء صعب يهون مع مرور الايام .. كل عسير يسهل ويلين ! »

ولكني واصلت البكاء . وتضيت ليلتي مفتحة العينين ، افكر بهذه الام الرؤوم . وبما جررته عليها من مصائب ومحن .. حتى تبلج الفجر .

واستولى علي الكرى ، فظهرت لي امي وهي تخاطبني بصوتها الحنون :

« اهداي ، لا تخافي ، فانا في نعيم مقيم ! »

وصفرت ايدينا من المال بعد حين ، وتراكمت الديون . ولكن الفرج جاءنا اخيرا في كتاب من أم بيرت ، وقد زفت الينا بشرى رضاها ، وارفقت بالكتاب حوالة مالية ضخمة .

وفوجئت ذات يوم بعرض للظهور والغناء في التلفزيون . وفكرت بما ينتظرني ان قبلت العرض . فكرت بليليان روث وهي تظهر امام اربعين مليون شخص ، وارتعدت فرائصي رهبة ورعبا .

وتحدثت مع بيرت في الامر ، واعربت له عن ريبتي ، فسفه رايي وشجعني ، والح علي ان اقبل العرض .

وعين اليوم المشهود ، فاصطحبني المسؤولون في سيارة مغلقة مسدلة الستائر الى دار البث ، حيث شددوا علي بوجوب ملازمة الدار وتناول ما يقدم لي من طعام وشراب .

وبعد ساعات اخذوني الى غرفة التجميل حيث اقبل علي رجال ونساء بمساحيقهم ومعداتهم . ولما انتهى عملهم ، ادخلوني الى قاعة كبيرة ، هي المسرح التلفزيوني .

واعطيت الاشارة — وكانت الدقيقة الفاصلة بيني وبين الزمان ... وسيحكم الناس لمن كانت الغلبة ، لي او للزمان !

« لك او عليك ! »

هتف صوت خفي في اعماقي

« لك او عليك ! »

هتف الصوت الخفي ثانية وثالثة .

ورايت امي في تلك الفينة ، ورايت وجه دافيد .. والتفت الى يميني فلمحت بيرت يرنو الي بنظرته المشجعة ، ثم رفعت راسي الى السماء وابتسمت — لقد رضي الله عني !

وفتحت فمي وغنيت — لا ، بل غردت — لا ، بل صدحت غنيت اغنيتي الخالدة — سابكي غدا .

وخيل الي وانا انهي الاغنية ان وجوه اربعين مليون انسان تتالق بشرا ، وان اصحاب هذه الوجود اخذوا يهتفون لي مرددين :

« سقيا لك يا ليليان روث ! لقد اجدت وابدعت وخلدت اسمك ! »

●

رجعت في تلك الليلة مع بيرت الى منزلنا ، وكان يطوق خصري بذراعه ، وكان احيانا يربت خدي ، وكان احيانا اخرى يقول :

« الم اؤكد لك انك ولدت لتكوني عظيمة بين العظماء ؟ »

●

وفي يوم احد ، بعد ايام ، وبينما كنت اجلس في استرخاء مع بيرت في الشرفة ، خطر لي فكر ، فابتدرته اقول :

« منذ سبع سنين التقيتك ، واحببتك ، وتزوجنا »

فقال وهو يبتسم :

« كانت كما اظن سبع سنين عجاف »

فملت عليه وقبلته واجبته :

وما قولك في السبع السنين المقبلة يا بيرت ؟ »

قال : « لن اتنبأ . بيد اني واثق بانها ستكون سبع سنين سمان مفعمة بالخير والبركة »

واخلدنا للصمت واستغرقنا في الفكر

وما لبثت ان قلت بصوت مهموس :

« من نعم الله على مخلوقاته ان الانسان لا يعلم ما وراء الغيب . فلو كانت عندي اي فكرة عن الصراع الهائل الذي سينشب بيني وبين السنين السبع المنصرمة ، لسقطت في

منتصف الطريق ، ولكني اعلم الان علم اليقين ان الله كان معي ، يشد أزري ويعضدني ! »

قال : « اصبت يا ليليان ، فأنت احتفظت بايمانك ، واجتزت العقبات ، وتخطيت العراقيل ... ولم يكن الامر صعبا بهذا المقدار » .

صعب ! لم يكن صعبا ! كيف ؟ وهل كنت لافلح في كسب الدنيا والاخرة لو لم يضف علي بعض الاشخاص حبهم ؟ هل كنت انجح لو لم يقيض الله لي بيرت وحبه !

بيرت ... بيرت ... الشاب الذي رضي بي رغم سقطتي وانحداري ...

بيرت بحبه اقال عثرتي ...

بيرت بحدبه صنعني صنعا جديدا ...

حب بيرت كان مجردا من الغايات ، دائما ، راسخا ، مستمرا .. وما اصابني في الماضي ، جعلني وانا اشعر بهذا الحب ، انظر بأمل مشرق الى المجهول الذي يتمخض عنه الغد .

وهكذا افلحت في اجتياز اللجة ، ووصلت الى بر السلامة ، ووقفت على قدمي بعد أن كنت اتخبط في لجة من الاقذار والاوحال .

ورنوت الى بيرت ... وتضاعف حبي !
وهمست وانا ادني فمي من فمه :
« كلا ، لا يا حبيبي ، لم يكن الامر صعبا ، فحبك لي ذلل العقبات ، وثمد طريق النجاة ، وانقذني من الهلاك !

« حبك لي ... حبك لي ... »
وغرقنا في قبلة طويلة ...

قبلة ابنة العشرين ، وابن العشرين !